(٨٥) سورة البروج مكية وآياتها اثنتان وعشرون

اعلم أن المقصود من هذه السورة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن إيذاء الكفار وكيفية تلك التسلية هي أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود ، وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب ، ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر ، وهو قوله (والله من ورائهم محيط) ذكر وجهاً ثالثاً وهو أن هذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير وهو قوله (بل هو قرآن مجيد) فهذا ترتيب السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ﴾ .

اعلم أن في البروج ثلاثة أقوال (أحدها) انها هي البروج الإثنا عشر وهي مشهورة وإنما حسن القسم بها لما فيها من عجيب الحكمة ، وذلك لأن سير الشمس فيها ولا شك أن مصالح العالم السفلي مرتبطة بسير الشمس فيدل ذلك على أن لها صانعاً حكيما ، قال الجبائي وهذه اليمين واقعة على السماء الدنيا لأن البروج فيها ، واعلم أن هذا خطأ وتحقيقه ذكرناه في قوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) ، (وثانيها) أن البروج هي منازل القمر ، وإنما حسن القسم بها لما في سير القمر وحركته من الآثار العجيبة (وثالثها) أن البروج هي عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها . وأما اليوم الموعود فهو يوم القيامة ، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ ، قال القفال : يحتمل أن يكون المراد (واليوم الموعود) لا نشقاق السماء وفنائها وبطلان بروجها . وأما الشاهد والمشهود ، فقد أضطرب أقاويل المفسرين فيه ، والقفال أحسن الناس كلاماً فيه ، قال إن الشاهد يقع على شيئين (أحدهما) الشاهد الذي تثبت به الدعاوى والحقوق (والثاني) الشاهد الذي هو بمعنى الحاضر ، كقوله (عالم الغيب والشهادة) ويقال فلان شاهد وفلان غائب ، وحمل الآية على هذا الاحتمال الثاني أولى ، إذ لو كان المراد هو الأول لما خلا لفظ المشهود عن حرف الصلة ، فيقال مشهود عليه ، أو مشهود له . هذا هو الظاهر ، وقد يجوز أن يكون المشهود

معناه المشهود عليه فحذفت الصلة ، كما فى قوله (إن العهد كان مسئولا) أى مسئولا عنه ، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إن حملنا الشهود على الحضور احتملت الآية وجوهاً من التاويل (أحدها) أن المشهود هو يوم القيامة ، والشاهد هو الجمع الذى يحضرون فيه ، وهو مروى عن ابن عباس والضحاك ، ويدل على صحة هذا الاحتمال وجوه (الأول) أنه لاحضور أعظم من ذلك الحضور ، فإن الله تعالى يجمع فيه خلق الأولين والآخرين من الملائكة والأنبياء والجن والإنس ، وصرف اللفظ إلى المسمى الأكمل أولى (والثانى) أنه تعالى ذكر اليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، ثم ذكر عقيبه (وشاهد ومشهود) وهذا يناسب أن يكون المراد بالشاهد من يحضر فى ذلك اليوم من الخلائق ، وبالمشهود ما فى ذلك اليوم من العجائب (الثالث) أن الله تعالى وصف يوم القيامة بكونه مشهوداً فى قوله (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) وقال (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) وقال (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) وقال (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) وطريق تنكيرهما إما ماذكرناه فى تفسير قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) كأنه قيل وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود ، وأما الإبهام فى الوصف كأنه قيل وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما ، وإنما حسن القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة إذ كان هو يوم الفصل والجزاء ويوم تفرد الله تعالى فيه بالملك والحكم ، وهذا الوجه اختيار ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن بن على وابن المسيب والضحاك والنخعى والثورى (وثانيها) أن يفسر المشهود بيوم الجمعة وهو قول ابن عمر وابن الزبير وذلك لأنه يوم يشهده المسلمون للصلاة ولذكر الله . ومما يدل على كون هذا اليوم مسمى بالمشهود خبران (الأول) ماروى أبو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » (والثانى) ماروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « تحضر الملائكة أبواب المسجد فيكتبون الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف » وهذه الخاصية غير موجودة إلا فى هذا اليوم فيجوز أن يسمى مشهوداً لهذا المعنى ، قال الله تعالى (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) وروى « أن ملائكة الليل والنهار يحضرون وقت صلاة الفجر فسميت هذه الصلاة مشهودة لشهادة الملائكة » فكذا يوم الجمعة (وثالثها) أن يفسر المشهو بيوم عرفة والشاهد من يحضره من الحاج وحسن القسم به تعظيما لأمر الحج روى أن الله تعالى يقول للملائكة يوم عرفة « انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً أتونى من كل فج عميق أشهدكم أنى قد غفرت لهم وأن إبليس يصرخ ويضع التراب على رأسه لما يرى من ذلك » والدليل على أن يوم عرفة مسمى بأنه مشهود قوله تعالى (وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم) ، (ورابعها) أن يكون المشهود يوم النحر وذلك لأنه أعظم المشاهد فى الدنيا فإنه يجتمع أهل الشرق والغرب فى ذلك اليوم بمنى والمزدلفة وهو عيد المسلمين ، ويكون الغرض من القسم به تعظيم أمر الحج (وخامسها) حمل الآية على يوم

الجمعة ويوم عرفة ويوم النحر جميعاً لأنها أيام عظام فأقسم الله بها كما أقسم بالليالي العشر والشفع والوتر ، ولعل الآية عامة لكل يوم عظيم من أيام الدنيا ولكل مقام جليل من مقاماتها وليوم القيامة أيضاً لأنه يوم عظيم كما قال (ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين) وقال (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) ويدل على صحة هذا التأويل خروج اللفظ في الشاهد والمشهود على النكرة ، فيحتمل أن يكون ذلك على معنى أن القصد لم يقع فيه إلى يوم بعينه فيكون معرفاً (أما الوجه الأول) وهو أن يحمل الشاهد على من تثبت الدعوى بقوله ، فقد ذكروا على هذا التقدير وجوهاً كثيرة (أحدها) أن الشاهد هو الله تعالى لقوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) وقوله (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله) وقوله (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) والمشهود هو التوحيد ، لقوله (شهد الله أنه لا إله إلا هو) أو النبوة (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم) (وثانيها) أن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود عليه سائر الأنبياء ، لقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) ولقوله تعالى (إنا أرسلناك شاهداً) (وثالثها) أن يكون الشاهد هو الأنبياء ، والمشهود عليه هو الأمم ، لقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) ، (ورابعها) أن يكون الشاهد هو جميع الممكنات والمحدثات ، والمشهود عليه واجب الوجود ، وهذا احتمال ذكرته أنا وأخذته من قول الأصوليين هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب ، وعلى هذا التقدير يكون القسم واقعاً بالخلق والخالق . والصنع والصانع (وخامسها) أن يكون الشاهد هو الملك ، لقوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) والمشهود عليه هم المكلفون (وسادسها) أن يكون الشاهد هو الملك ، والمشهود عليه هو الإنسان الذي تشهد عليه جوارحه يوم القيامة ، قال (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) وهذا قول عطاء الخراساني . (وأما الوجه الثالث) وهو أقوال مبنية على الروايات لا على الاشتقاق (فأحدها) أن الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، روى أبو موسى الأشعري أنه عليه الصلاة والسلام قال « اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة ذخيرة الله لنا » وعن أبي هريرة مرفوعاً قال « المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت الشمس ولا غربت على أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه منه » وعن سعيد بن المسيب مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال « سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا قول كثير من أهل العلم كعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وأبي هريرة وابن المسيب والحسن البصري والربيع بن أنس ، قال قتادة : شاهد ومشهود ، يومان عظمهما الله من أيام الدنيا ، كما يحدث أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة (وثانيها) أن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر

قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾

وذلك لأنهما يومان عظمهما الله رجعلهما من أيام أركان أيام الحج ، فهذان اليومان يشهدان لمن يحضر فيهما بالإيمان واستحقاق الرحمة ، وروى أنه عليه السلام ذبح كبشين ، وقال فى أحدهما «هذا عمن يشهد لى بالبلاغ » فيحتمل لهذا المعنى أن يكون يوم النحر شاهداً لمن حضره بمثل ذلك لهذا الخبر (وثالثها) أن الشاهد هو عيسى لقوله تعالى حكاية عنه (وكنت عليهم شهيداً) ، (ورابعها) الشاهد هو الله والمشهود هو يوم القيامة ، قال تعالى (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلين) وقوله (ثم ينبئهم بما عملوا) ، (وخامسها) أن الشاهد هو الإنسان ، والمشهود هو التوحيد لقوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) (وسادسها) أن الشاهد الإنسان والمشهود هو يوم القيامة ، أما كون الإنسان شاهداً فلقوله تعالى (قالوا بلى شهدنا) وأما كون يوم القيامة مشهوداً فلقوله (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) فهذه هى الوجوه الملخصة ، والله أعلم بحقائق القرآن .

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ﴾.

اعلم أنه لابد للقسم من جواب ، واختلفوا فيه على وجوه (أحدها) ما ذكره الأخفش وهو أن جواب القسم قوله (قتل أصحاب الأخدود) واللام مضمرة فيه ، كما قال (والشمس وضحاها) (قد أفلح من زكاها) يريد . لقد أفلح ، قال وإن شئت على التقديم كأنه قيل قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج (وثانيها) ما ذكره الزجاج ، وهو أن جواب القسم (إن بطش ربك لشديد وهو قول ابن مسعود وقتادة (وثالثها) أن جواب القسم قوله (إن الذين فتنوا) الآية كما تقول والله إن زيداً لقائم ، إلا أنه اعترض بين القسم وجوابه ، قوله (قتل أصحاب الأخدود) إلى قوله (إن الذين فتنوا) (ورابعها) ما ذكره جماعة من المتقدمين أن جواب القسم محذوف ، وهذا اختيار صاحب الكشاف إلا أن المتقدمين ، قالوا ذلك المحذوف هو أن الأمر حق فى الجزاء على الأعمال وقال صاحب الكشاف جواب القسم هو الذى يدل عليه قوله (قتل أصحاب الأخدود) كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء ، أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، وذلك لأن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان حتى يقتدوا بهم ويصبروا على أذى قومهم ، ويعلموا أن كفار مكة عند الله بمنزلة أولئك الذين كانوا فى الأمم السالفة يحرقون أهل الإيمان بالنار ، وأحقاء بأن يقال فيهم قتلت قريش كما (قتل أصحاب الأخدود) أما قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا قصة أصحاب الأخدود على طرق متباينة ونحن نذكر منها ثلاثة :
(أحدها) أنه كان لبعض الملوك ساحر ، فلما كبر ضم إليه غلام ليعلمه السحر ، وكان فى طريق الغلام راهب ، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب ثم رأى الغلام فى طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً ، وقال : اللهم ان كان الراهب أحب إليك من الساحر فقونى على قتلها بواسطة رمى الحجر إليها ، ثم رمى فقتلها ، فصار ذلك سبباً لإعراض الغلام عن السحر واشتغاله بطريقة الراهب ، ثم صار إلى حيث يبرىء الأكمه والأبرص ويشفى من الأدواء ، فاتفق أن عمى جليس للملك فأبرأه فلما رآه الملك قال من رد عليك نظرك ؟ فقال ربى فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فأحضر الراهب وزجره عن دينه فلم يقبل الراهب قوله فقد بالمنشار ، ثم أتوا بالغلام إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا الله ، فرجف بالقوم فهلكوا ونجا ، فذهبوا به إلى سفينة لجحوا بها ليغرقوه ، فدعا الله فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا ، فقال للملك لست بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهماً من كنانتى ، وتقول بسم الله رب الغلام ثم ترمينى به ، فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس آمنا برب الغلام . فقيل للملك نزل بك ما كنت تحذر ، فأمر بأخاديد فى أفواه السكك ، وأوقدت فيها النيران ، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبى يا أماه اصبرى فإنك على الحق ، فصبرت على ذلك .

﴿ الرواية الثانية ﴾ روى عن على عليه السلام أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال هم أهل الكتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكها فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج أن تخطب الناس فتقول إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول بعد ذلك حرمه فخطب فلم يقبلوا منه ذلك فقالت له أبسط فيهم السوط فلم يقبلوا فقالت ابسط فيهم السيف فلم يقبلوا فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها الذين أرادهم الله بقوله (قتل أصحاب الأخدود) .

﴿ الروية الثالثة ﴾ أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودى بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا ، فأحرق منهم اثنى عشر ألفاً فى الأخاديد ، وقيل سبعين ألفاً . وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا ، وعن النبى ﷺ « أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء » فإن قيل تعارض هذه الروايات يدل على كذبها ، قلنا لا تعارض فقيل إن هذا كان فى ثلاث طوائف ثلاث مرات مرة باليمن ، ومرة بالعراق ، ومرة بالشام ، ولفظ الأخدود ، وإن كان واحداً إلا أن المراد هو الجمع وهو كثير من القرآن ، وقال القفال : ذكروا فى قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس فى شىء منها مايصح إلا أنها متفقة فى أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكا كافراً

كان حاكما عليهم فألقاهم فى أخدود وحفر لهم ، ثم قال وأظن أن تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تنبيهاً لهم على مايلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه فقد كان مشركوا قريش يؤذون المؤمنون على حسب ما اشتهرت به الأخبار من مبالغتهم فى إيذاء عمار وبلال .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ الأخدود : الشق فى الأرض يحفر مستطيلا وجمعه الأخاديد ومصدره الخد وهو الشق يقال خد فى الأرض خداً وتخدد لحمه إذا صار طرائق كالشقوق .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ يمكن أن يكون المراد بأصحاب الأخدود القاتلين ، ويمكن أن يكون المراد بهم المقتولين ، والرواية المشهورة أن المقتولين هم المؤمنون ، وروى أيضاً أن المقتولين هم الجبابرة لأنهم لما ألقوا المؤمنين فى النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين ، وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواقدى وتأولوا قوله (فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) أى لهم عذاب جهنم فى الآخرة ولهم عذاب الحريق فى الدنيا . إذا عرفت هذه المقدمة فنقول ذكروا فى تفسير قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود) وجوهاً ثلاثة وذلك لأنا إما أن نفسر أصحاب الأخدود بالقاتلين أو بالمقتولين . أما على الوجه الأول ففيه تفسيران (أحدهما) أن يكون هذا دعاء عليهم أى لعن أصحاب الأخدود ، ونظيره قوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره (قتل الخراصون) (والثانى) أن يكون المراد أن أولئك القاتلين قتلوا بالنار على ما ذكرنا أن الجبابرة لما أرادوا قفل المؤمنين بالنار عادت النار عليهم فقتلتهم ، وأما إذا فسرنا ، أصحاب الأخدود بالمقتولين كان المعنى أن أولئك المؤمنين قتلوا بالإحراق بالنار ، فيكون ذلك خبراً لادعاء .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ قرىء قتل بالتشديد . أما قوله تعالى (النار ذات الوقود) ففيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ النار إنما تكون عظيمة إذا كان هناك شىء يحترق بها إما حطب أو غيره ، فالوقود اسم لذلك الشىء لقوله تعالى (وقودها الناس والحجارة) وفى (ذات الوقود) تعظيم أمر ما كان فى ذلك الأخدود من الحطب الكثير .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال أبو على هذا بدل الاشتمال كقولك سلب زيد ثوبه فإن الأخدود مشتمل على النار .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ قرىء الوُقود بالضم ، أما قوله تعالى (إذ هم عليها قعود) ففيه مسألتان :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ العامل فى إذ قتل والمعنى لعنوا فى ذلك الوقت الذى هم فيه قعود عند الأخدود يعذبون المؤمنين .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ فى الآية إشكال وهو أن قوله (هم) ضمير عائد إلى أصحاب الأخدود ، لأن ذلك أقرب المذكورات والضمير فى قوله (عليها) عائد إلى النار فهذا يقتضى أن أصحاب الأخدود كانوا قاعدين على النار ، ومعلوم أنه لم يكن الأمر كذلك (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الضمير فى هم عائد إلى أصحاب الأخدود ، لكن المراد ههنا من أصحاب الأخدود المقتولون لا القاتلون

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ

فيكون المعنى إذ المؤمنين قعود على النار يحترقون مطرحون على النار (وثانيها) أن يجعل الضمير فى (عليها) عائداً إلى طرف النار وشفيرها والمواضع التى يمكن الجلوس فيها ، ولفظ ، على مشعر بذلك تقول مررت عليها تريد مستعلياً بمكان يقرب منه ، فالقاتلون كانوا جالسين فيها وكانوا يعرضون المؤمنين على النار ، فمن كان يترك دينه تركوه ومن كان يصبر على دينه ألقوه فى النار (وثالثها) هب أنا سلمنا أن الضمير فى هم عائد إلى أصحاب الأخدود بمعنى القاتين ، والضمير فى عليها عائد إلى النار ، فلم لا يجوز أن يقال . إن أولئك القاتلين كانوا قاعدين على النار ، فإنا بينا أنهم لما ألقوا المؤمنين فى النار ارتفعت النار إليهم فهلكوا بنفس مافعلوه بأيديهم لأجل إهلاك غيرهم ، فكانت الآية دالة على أنهم فى تلك الحالة كانوا ملعونين أيضاً ، ويكون المعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة (ورابعها) أن تكون على بمعنى عند ، كما قيل فى قوله (ولهم على ذنب) أى عندى .

أما قوله تعالى (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) فاعلم أن قوله (شهود) يحتمل أن يكون المراد منه حضور ، ويحتمل أن يكون المراد منه الشهود الذين تثبت الدعوى بشهادتهم ، أما على الوجه الأول ، فالمعنى إن أولئك الجبابرة القاتلين كانوا حاضرين عند ذلك العمل يشاهدون ذلك فيكون الغرض من ذكر ذلك أحد أمور ثلاثة : إما وصفهم بقسوة القلب إذ كانوا عند التعذيب بالنار حاضرين مشاهدين له ، وأما وصفهم بالجد فى تقرير كفرهم وباطلهم حيث حضروا فى تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة ، وأما وصف أولئك المؤمنين المقتولين بالجد دينهم والإصرار على حقهم ، فإن الكفار إنما حضروا فى ذلك الموضع طمعاً فى أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم ، ثم إن أولئك المؤمنين لم يلتفتوا إليهم وبقوا مصرين على دينهم الحق ، فإن قلت المراد من الشهود إن كان هذا المعنى ، فكان يجب أن يقال وهم لما يفعلون شهود ولا يقال وهم على ما يفعلون شهود ؟ قلنا إنما ذكر لفظة على بمعنى أنهم على قبح فعلهم بهؤلاء المؤمنين ، وهو إحراقهم بالنار كانوا حاضرين مشاهدين لتلك الأفعال القبيحة .

﴿أما الإحتمال الثانى﴾ وهو أن يكون المراد من الشهود الشهادة التى تثبت الدعوى بها ففيه وجوه (أحدها) أنهم جعلوا شهوداً يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحداً منهم لم يفرط فيما أمر به ، وفوض إليه من التعذيب (وثانيها) أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين يؤدون شهادتهم يوم القيامة (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) . (وثالثها) أن هؤلاء الكفار مشاهدون لما يفعلون بالمؤمنين من الإحراق بالنار حتى لو كان ذلك من غيرهم لكانوا شهوداً عليه ، ثم مع هذا لم تأخذهم بهم رأفة ، ولا حصل فى قلوبهم ميل ولا شفقة .

قوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾ المعنى وما عابوا منهم وما أنكروا الإيمان ، كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ونظيره قوله تعالى (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله) وإنما قال (إلا أن يؤمنوا) لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإيمان فى المستقبل ، ولو كفروا فى المستقبل لم يعذبوا على مامضى ، فكأنه قيل إلا أن يدوموا على إيمانهم ، وقرأ أبو حيوة (نقموا) بالكسر ، والفصيح هو الفتح ، ثم إنه ذكر الأوصاف التى بها يستحق الإله أن يؤمن به ويعبد (فأولها) العزيز وهو القادر الذى لا يغلب ، والقاهر الذى لايدفع ، وبالجملة فهو إشارة إلى القدرة التامة (وثانيها) الحميد وهو الذى يستحق الحمد والثناء على ألسنة عباده المؤمنين وإن كان بعض الأشياء لايحمده بلسانه فنفسه شاهدة على أن المحمود فى الحقيقة هو هو ، كما قال (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وذلك إشارة إلى العلم لأن من لا يكون عالما بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة ، فالحميد يدل على العلم التام من هذا الوجه (وثالثها) الذى له ملك السموات والأرض وهو مالكها والقيم بهما ولو شاء لأفناهما ، وهو إشارة إلى الملك التام وإنما أخر هذه الصفة عن الأولين لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال فى القدرة والعلم ، فثبت أن من كان موصوفاً بهذه الصفات كان هو المستحق للايمان به وغيره لا يستحق ذلك البتة ، فكيف حكم أولئك الكفار الجهال يكون مثل هذا الإيمان ذنباً .

واعلم أنه تعالى أشار بقوله (العزيز) إلى أنه لو شاء لمنع أولئك الجبابرة من تعذيب أولئك المؤمنين ، ولأطفأ نيرانهم ولأماتهم وأشار بقوله (الحميد) إلى أن المعتبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أهمل ، فانه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين إليهم ، وعقاب أولئك الكفرة إليهم ، ولكنه تعالى لم يعاجلهم بذلك لأنه لم يفعل إلا على حسب المشيئة أو المصلحة على سبيل التفضل ، فلهذا السبب قال (والله على كل شىء شهيد) فهو وعد عظيم للمطيعين ووعيد شديد للمجرمين .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ .

اعلم أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود ، أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب فقال (إن الذين فتنوا المؤمنين) وههنا مسائل :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط ، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك وهذا أولى لأن اللفظ عام والحكم عام فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أصل الفتنة الابتلاء والامتحان ، وذلك لأن أولئك الكفار امتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم على النار وأحرقوهم ، وقال بعض المفسرين الفتنة هي الإحراق بالنار وقال ابن عباس ومقاتل (فتنوا المؤمنين) حرقوهم بالنار ، قال الزجاج يقال فتنت الشيء أحرقته والفتن أحجار سود كأنها محترقة ، ومنه قوله تعالى (يوم هم على النار يفتنون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (ثم لم يتوبوا) يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة ، ويدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة خلاف ماروي عن ابن عباس .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في قوله (فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) قولان :

﴿ الأول ﴾ أن كلا العذابين يحصلان في الآخرة ، إلا أن عذاب جهنم وهو العذاب الحاصل بسبب كفرهم ، وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين ، فيحتمل أن يكون العذاب الأول عذاب برد والثاني عذاب إحراق وأن يكون الأول عذاب احراق والزائد على الإحراق أيضاً احراق ، إلا أن العذاب الأول كأنه خرج عن أن يسمى احراقاً بالنسبة إلى الثاني ، لأن الثاني قد اجتمع فيه نوعا الاحراق فتكامل جداً فكان الأول ضعيفاً ، فلا جرم لم يسم إحراقاً .

﴿ القول الثاني ﴾ أن قوله (فلهم عذاب جهنم) إشارة إلى عذاب الآخرة (ولهم عذاب الحريق) إشارة إلى ما ذكرنا أن أولئك الكفار ارتفعت عليهم نار الأخدود فاحترقوا بها .

قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المجرمين ذكر وعد المؤمنين وهو ظاهر وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما قال (ذلك الفوز) ولم يقل تلك الدقيقة لطيفة وهي أن قوله (ذلك) إشارة إلى إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات ، وقوله (تلك) إشارة إلى الجنات وإخبار الله تعالى عن ذلك يدل على كونه راضياً والفوز الكبير هو رضا الله لا حصول الجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قصة أصحاب الأخدود ولا سيما هذه الآية تدل على أن المكره على

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

الكفر بالإهلاك العظيم الأولى نه أن يصبر على ماخوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة فى ذلك روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما تشهد أنى رسول الله فقال نعم فتركه ، وقال للآخر مثله فقال لا بل أنت كذاب فقتله فقال عليه السلام « أما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذى قتل فأخذ بالفضل فهنيئاً له » .

قوله تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات أولا وذكر وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثانياً أردف ذلك الوعد والوعيد بالتأكيد فقال لتأكيد الوعيد (إن بطش ربك لشديد) والبطش هو الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم ونظيره (إن أخذه أليم شديد) ثم إن هذا القادر لايكون إمهاله لأجل الاهمال ، لكن لأجل أنه حكيم إما بحكم المشيئة أو بحكم المصلحة ، وتأخير هذا الأمر إلى يوم القيامة ، فلهذا قال (إنه هو يبدىء ويعيد) أى إنه يخلق خلقه ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء ليجازيهم فى القيامة ، فذلك الإمهال لهذا السبب لا لأجل الإهمال ، قال ابن عباس إن أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحما ثم يعيدهم خلقاً جديداً ، فذاك هو المراد من قوله (إنه هو يبدىء ويعيد) ،

ثم قال لتأكيد الوعد (وهو الغفور الودود) فذكر من صفات جلاله وكبريائه خمسة (أولها) الغفور قالت المعتزلة هو الغفور لمن تاب ، وقال أصحابنا إنه غفور مطلقاً لمن تاب ولمن لم يتب لقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ولأن غفران التائب واجب وأداء الواجب لا يوجب التمدح والآية مذكورة فى معرض التمدح (وثانيها) الودود وفيه أقوال (أحدها) المحب هذا قول أكثر المفسرين ، وهو مطابق للدلائل العقلية ، فإن الخير مقتضى بالذات والشر بالعرض ، ولا بد أن يكون الشر أقل من الخير فالغالب لابد وأن يكون خيراً فيكون محبوباً بالذات (وثانيها) قال الكلبى الودود هو المتودد إلى أوليائه بالمغفرة والجزاء ، والقول هو الأول (وثالثها) قال الأزهرى قال بعض أهل اللغة يجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ، ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لما عرفوا من كماله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، قال وكلتا الصفتين مدح لأنه جل ذكره إذا أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

(ورابعها) قال القفال ؞ قيل الودود قد يكون بمعنى الحليم من قولهم دابة ودود وهى المطيعة القياد التى كيف عطفتها انعطفت وأنشد قطرب .

وأعددت للحرب خيفانة ذلول القياد وقاحا ودودا

(وثالثها) ذو العرش ، قال القفال ذو العرش أى ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه ، وإن لم يكن على السرير ، وكما يقال ثل عرش فلان إذا ذهب سلطانه ، وهذا معنى متفق على صحته ، وقد يجوز أن يكون المراد بالعرش السرير ، ويكون جل جلاله خلق سريراً فى سمائه فى غاية العظمة والجلالة بحيث لا يعلم عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه (ورابعها) المجيد ، وفيه قراءتان (إحداهما) الرفع فيكون ذلك صفة لله سبحانه ، وهو اختيار أكثر القراء والمفسرين لأن المجد من صفات التعالى والجلال ، وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه ، والفصل والاعتراض بين الصفة والموصوف فى هذا النحو غير ممتنع (والقراءة الثانية) بالخفض وهى قراءة حمزة والكسائى ، فيكون ذلك صفة العرش ، وهؤلاء قالوا القرآن دل على أنه يجوز وصف غير الله بالمجيد حيث قال (بل هو قرآن مجيد) ورأينا أن الله تعالى وصف العرش بأنه كريم فلا يبعد أيضا أن يصفه بأنه مجيد ، ثم قالوا إن مجد الله عظمته بحسب الوجوب الذاتى وكمال القدرة والحكمة والعلم ، وعظمة العرش علوه فى الجهة وعظمة مقداره وحسن صورته وتركيبه ، فإنه قيل العرش أحسن الأجسام تركيبا وصورة (وخامسها) أنه فعال لما يريد وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فعال خبر مبتدأ محذوف .

﴿المسألة الثانية﴾ من النحويين من قال (وهو الغفور الودود) خبران لمبتدأ واحد ، وهذا ضعيف لأن المقصود بالإسناد إلى المبتدأ إما أن يكون مجموعها أو كل واحد واحد منهما ، فان كان الأول كان الخبر واحد الآخرين وإن كان الثانى كانت القضية لا واحد قبل قضيتين .

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسالة خلق الأفعال فقالوا لاشك أنه تعالى يريد الإيمان فوجب أن يكون فاعلا للايمان بمقتضى هذه الآية وإذا كان فاعلا للايمان وجب أن يكون فاعلا للكفر ضرورة أنه لاقائل بالفرق ، قال القاضى ولا يمكن أن يستدل بذلك على أن ما يريده الله تعالى من طاعة الخلق لابد من أن يقع لأن قوله تعالى (فعال لما يريد) لايتناول إلا ما إذا وقع كان فعله دون ما إذا وقع لم يكن فعلا له هذه ألفاظ القاضى ولا يخفى ضعفها .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى لا يجب لأحد من المكلفين عليه شىء البتة ، وهو ضعيف لأن الآية دالة على أنه يفعل ما يريد ، فلم قلتم إنه يريد أن لا يعطى الثواب ،

﴿المسألة الخامسة﴾ قال القفال فعال لما يريد على ما يراه لايعترض عليه معترض ولا يغلبه غالب ، فهو يدخل أولياءه الجنة لايمنعه منه مانع ، ويدخل أعداءه النار لاينصرهم منه ناصر ، ويمهل العصاة على مايشاء إلى أن يجازيهم ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء ويعذب من شاء منهم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

فى الدنيا وفى الآخرة يفعل من هذه الأشياء ومن غيرهما مايريد .

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون ، وثمود ، بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين حال أصحاب الأخدود فى تأذى المؤمنين بالكفار ، بين أن الذين كانوا قبلهم كانوا أيضاً كذلك ، واعلم أن فرعون وثمود بدل من الجنود ، وأراد بفرعون إياه وقومه كما فى قوله من فرعون وملئهم وثمود ، كانوا فى بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة فذكر تعالى من المتأخرين فرعون ، ومن المتقدمين ثمود ، والمقصود بيان أن حال المؤمنين مع الكفار فى جميع الأزمنة مستمرة على هذا النهج ، وهذا هو المراد من قوله ، بل الذين كفروا فى تكذيب ، ولما طيب قلب الرسول عليه السلام بحكاية أحوال الأولين فى هذا الباب سلاه بعد ذلك من وجه آخر ، وهو قوله (والله من ورائهم محيط) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد وصف اقتداره عليهم وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه ، فلا يجد مهرباً يقول تعالى ، فهم كذا فى قبضتى وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم إياك فلا تجزع من تكذيبهم إياك ، فليسوا يفوتوننى إذا أردت الانتقام منهم (وثانيها) أن يكون المراد من هذه الإحاطة قرب هلاكهم كقوله تعالى (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) وقوله (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) وقوله (وظنوا أنهم أحيط بهم) فهذا كله عبارة عن مشارفة الهلاك ، يقول فهؤلاء فى تكذيبك قد شارفوا الهلاك (وثالثها) أن يكون المراد والله محيط بأعمالهم ، أى عالم بها ، فهو مرصد بعقابهم عليها ، ثم إنه تعالى سلى رسوله بعد ذلك بوجه ثالث ، وهو قوله (بل هو قرآن مجيد) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تعلق هذا بما قبله ، هو أن هذا القرآن مجيد مصون عن التغير والتبدل ، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم ، وبتأذى قوم من قوم ، امتنع تغيره وتبدله ، فوجب الرضا به ، ولاشك أن هذا من أعظم موجبات التسلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (قرآن مجيد) بالإضافة ، أى قرآن رب مجيد ، وقرأ يحي بن يعمر فى لوح واللوح الهواء يعنى اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح المحفوظ ، وقرىء محفوظ

بالرفع صفة للقرآن كما قلنا (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى قال ههنا (فى لوح محفوظ) وقال فى آية أخرى (إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون) فيحتمل أن يكون الكتاب المكنون واللوح المحفوظ واحداً ثم كونه محفوظاً يحتمل أن يكون المراد كونه محفوظاً عن أن يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى (لا يمسه إلا المطهرون) ويحتمل أن يكون المراد كونه محفوظاً من اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة المقربين ويحتمل أن يكون المراد أن لا يجرى عليه تغيير وتبديل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال بعض المتكلمين إن اللوح شىء يلوح للملائكة فيقرؤنه ولما كانت الأخبار والآثار واردة بذلك وجب التصديق ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



سورة البروج

مكية باتفاق. وهي ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾

قَسَمٌ أَقْسَمَ الله به جلَّ وعزَّ. وفي «البروج» أقوالٌ أربعةٌ:

أحدُها: ذات النجوم؛ قاله الحسنُ وقتادةُ ومجاهدٌ والضحَّاك[1].

الثاني: القُصُور؛ قاله ابن عباس[2] وعِكرمةُ ومجاهدٌ أيضاً. قال عِكرمةُ: هي قُصورٌ في السماء. مجاهدٌ: البُروج فيها الحرس.

الثالث: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ؛ قاله المِنهالُ بنُ عمرو[3].

الرابع: ذات المنازِلِ؛ قاله أبو عبيدةَ ويحيى بنُ سلام. وهي اثْنَا عَشَرَ بُرْجاً، وهي منازِلُ الكواكبِ والشمسِ والقمرِ. يسيرُ القمرُ في كلِّ بُرْجٍ منها يومين وثُلُثِ يومٍ؛ فذلك ثمانيةٌ وعشرون يوماً، ثم يَسْتَتِرُّ ليلتين. وتَسيرُ الشمسُ في كلِّ بُرْجٍ منها شهراً[4]. وهي: الحَمَل، والثَّورُ، والجَوزاءُ، والسَّرَطانُ، والأسدُ، والسُّنْبلةُ، والمِيزانُ، والعَقْربُ، والقَوسُ، والجَدْي، والدَّلْوُ، والحُوتُ.

والبروجُ في كلام العرب: القصور؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] وقد تقدّم[5].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٤٠، وأخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٣٦١، والطبري ٢٤/ ٢٦١، وعن مجاهد الطبري ٢٤/ ٢٦١.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٦٠، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٩٣، وذكر القول عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٤٠.

(٥) ٦/ ٤٦٥، وينظر في الكلام عن البروج وعن منازل الشمس والقمر ١٢/ ١٨٦ و١٧/ ٤٤٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ أي: الموعود به. وهو قَسَمٌ آخَرُ، وهو يومُ القيامةِ، من غيرِ اختلافٍ بين أهل التأويل. قال ابن عباس: وُعِدَ أهلُ السماءِ وأهلُ الأرضِ أنْ يجتمعوا فيه.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اختُلِفَ فيهما؛ فقال عليٌّ وابْنُ عباسٍ وابنُ عمرَ وأبو هريرة ﷺ: الشاهدُ يومُ الجمعةِ، والمشهودُ يومُ عرفةَ. وهو قولُ الحسن[١]. ورواه أبو هُريرةَ مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اليومُ الموعودُ يومُ القيامةِ، واليومُ المشهودُ يومُ عَرَفَةَ، والشاهدُ يومُ الجمعةِ...» خرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ في جامِعِه، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ، لا نَعْرِفُهُ إلَّا مِن حديثِ موسى بنِ عُبيدةَ، وموسى بنُ عبيدةَ يُضَعَّفُ في الحديث، ضَعَّفه يحيى بنُ سعيدٍ وغيرُه. وقد رَوَى شُعبةُ وسفيانُ الثوريُّ وغيرُ واحدٍ من الأئمة عنه[٢]. قال القشَيريُّ: فيومُ الجمعةِ يَشْهدُ على كلِّ عاملٍ بما عَمِلَ فيه.

قلت: وكذلك سائرُ الأيامِ والَّليالي؛ فكلُّ يومٍ شاهدٌ، وكذا كلُّ ليلةٍ؛ ودليلُه ما رواه أبو نعيمٍ الحافظُ عن معاويةَ بنِ قُرَّةَ، عن مَعْقِل بنِ يسارٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على العبدِ إلَّا يُنادَى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خَلْقٌ جديدٌ، وأنا فيما تَعْمَلُ عليك [غداً] شهيدٌ، فاعْمَلْ فيَّ خيراً أَشْهَدْ لك به غداً، فإنِّي لو قد مَضَيْتُ لم تَرَنِي أبداً، ويقولُ الليلُ مثلَ ذلك». حديثٌ غريبٌ من حديثِ معاويةَ، تفرَّد به عنه زيدٌ العَمِّيُّ، ولا أَعْلَمُه مرفوعاً عن النبيِّ ﷺ إلَّا بهذا الإسناد[٣].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٢٦٤-٢٦٥ عدا ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الوسيط ٤/ ٤٥٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٦-٤٦٧ ، وزاد المسير ٩/ ٧١ عن ابن عمر أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر. وقول أبي هريرة أخرجه أيضاً أحمد (٧٩٧٣).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٣٩)، ووقع في مطبوعه: حسن غريب. وفي تحفة الأحوذي ٩/ ٢٥٨ : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى...، ونحوه في تحفة الأشراف ١٠/ ١٣٤ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وقد روي موقوفاً على أبي هريرة، وهو أشبه. اهـ. وقد سلف الموقوف آنفاً.

(٣) الحلية ٢/ ٣٠٣-٣٠٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

وحكى القُشَيريُّ عن ابنِ عمرَ وابنِ الزُّبير: أنَّ الشاهدَ يومُ الأضحى[١].

وقال سعيد بن المسيب: الشاهدُ: يومُ التَّرْوِيةِ، والمشهودُ: يومُ عَرَفَةَ[٢].

وروى إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن الحارث، عن عليٍّ ﷺ: الشاهدُ يومُ عرفة، والمشهودُ يومُ النحر[٣]. وقاله النخعيُّ[٤].

وعن عليٍّ أيضاً: المشهودُ يومُ عرفةَ[٥]. وقال ابنُ عباسٍ والحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: المشهودُ يومُ القيامةِ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣][٦].

قلت: وعلى هذا اختَلَفَتْ أقوالُ العلماءِ في الشاهد، فقيل: اللهُ تعالى؛ عن ابن عباسٍ والحسنِ وسعيد بنِ جُبير[٧]، بيانُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل: محمدٌ ﷺ؛ عن ابنِ عباسٍ أيضاً والحسينِ بنِ عليٍّ، وقرأ ابنُ عباس: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] وقرأ الحسين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥][٨].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ٢٤/ ٢٦٦ و٢٦٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٦٧ ، وزاد المسير ٩/ ٧٢ .

(٣) ذكره الرازي ٣١/ ١١٦-١١٧ دون نسبة، وفي تفسير مجاهد ٢/ ٧٤٥ من طريق شريك، ، عن أبي إسحاق، عن الحارث عن علي: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم النحر.

(٤) لم نقف عليه، وروي عنه عكسه، وهو أن الشاهد يوم النحر، والمشهود يوم عرفة. النكت والعيون ٦/ ٢٤١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦١ ، وزاد المسير ٩/ ٧٢ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦١ ، والطبري ٢٤/ ٢٦٥ ، وسلف في بداية تفسير هذه الآية.

(٦) أخرجه عن ابن عباس النسائي في الكبرى (١١٥٩٩)، والطبري ٢٤/ ٢٦٦ ، وأخرجه عن الحسين الطبري ٢٤/ ٢٦٦-٢٦٧ ، والطبراني في الصغير (١١٣٧)، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٧٤٦ ، ووقع في تفسير الطبري: الحسن، بدل: الحسين.

(٧) أخرجه عن ابن عباس الطبري ٢٤/ ٢٦٩ ، وذكره عن سعيد بن جبير البغوي ٤/ ٤٦٧ ، وابن الجوزي ٩/ ٧٢ .

(٨) أخرجه عن ابن عباس النسائي في الكبرى (١١٥٩٩)، وعن الحسين الطبراني في الصغير (١١٣٧). وقد سلفت قطعة منه قريباً.

قلت: وأَقرأُ أنا: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الأنبياءُ يَشْهَدون على أُممهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]. وقيل: آدمُ. وقيل: عيسى بنُ مريم؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمشهودُ: أُمَّتُه.

وعن ابن عباس أيضاً ومحمد بنِ كعب: الشاهدُ: الإنسان؛ دليلُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

مقاتل: أعضاؤه، بيانُه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

الحسين بنُ الفَضْلِ: الشاهدُ هذه الأمَّةُ، والمشهودُ سائرُ الأممِ، بيانُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: الشاهد: الحفَظَة، والمشهودُ: بنو آدم[١]. وقيل: الليالي والأيامُ. وقد بيَّناه[٢].

قلت: وقد يشهدُ المالُ على صاحبه، والأرضُ بما عملَ عليها؛ ففي «صحيح» مسلم[٣] عن أبي سعيد الخُدريِّ عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، ونِعْمَ صاحبُ المُسْلِم هو لمَن أَعْطَى منه المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ وإنَّه مَن يأخذُه بغيرِ حقِّه كان كالذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، ويكونُ عليه شهيداً يومَ القيامة».

وفي الترمذيِّ عن أبي هريرةَ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] قال: «أتدرون ما أخبارُها»؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم. قال:

---

(١) تنظر هذه الأقوال وغيرها في النكت والعيون ٦/ ٢٤١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٦٧ ، وزاد المسير ٩/ ٧٢-٧٣ .

(٢) في الصفحة السابقة.

(٣) برقم (١٠٥٢).

«فإنَّ أخبارَها أنْ تَشْهَدَ على كلِّ عبدٍ أو أَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِها، تقولُ: عَمِلَ يومَ كذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارُها». قال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح[١].

وقيل: الشاهدُ الخَلْقُ، شهدوا للهِ عزَّ و جلَّ بالوحدانية. والمشهودُ له بالتوحيدِ هو اللهُ تعالى.

وقيل: المشهودُ يومُ الجمعةِ، كما رَوَى أبو الدَّرداءِ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِروا عليَّ من الصلاةِ يومَ الجمعةِ فإنه يومٌ مشهودٌ تَشْهَدُه الملائكةُ.... »وذَكر الحديث. خرَّجه ابنُ ماجه وغيرُه[٢].

قلت: فعلى هذا يومُ عرفةَ مشهودٌ؛ لأنَّ الملائكةَ تَشهدُه، وتنزلُ فيه بالرحمة. وكذا يومُ النَّحْرِ إنْ شاءَ الله.

وقال أبو بكرٍ العطارُ: الشاهدُ الحجرُ الأسودُ، يَشْهدُ لِمَنْ لَمَسَه بصدقٍ وإخلاصٍ ويقينٍ. والمشهودُ الحاجُّ. وقيل: الشاهدُ الأنبياءُ، والمشهودُ محمدٌ ﷺ، بيانُه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١][٣].

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾أي: لُعن. قال ابنُ عباسٍ: كلُّ شيءٍ في القرآن«قُتل»، فهو لُعِن. وهذا جوابُ القَسَمِ في قولِ الفرَّاء، واللام فيه مُضْمَرةٌ، كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢] أي: لقد أَفْلَح[٤].

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٩) و(٣٣٥٣)، وهو عند أحمد (٨٨٦٧).

(٢) سنن ابن ماجه (١٦٣٧)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٢٧٠ .

(٣) زاد المسير ٩/ ٧٣ .

(٤) بنحوه في معاني القرآن للفراء٣/ ٢٥٣ ، وللأخفش ٢/ ٧٣٦ . وعقب عليه الفراء بقوله: هذا في التفسير، ولم نجد العرب تَدَعُ القسم بغير لام يستقبل بها، أو «لا»، أو «إنَّ»، أو«ما»، فإن يكن كذلك فكأنه مما ترك فيه الجواب، ثم استؤنف موضع الجواب بالخبر.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قُتل أصحابُ الأخدود والسماء ذاتِ البُروجِ، قاله أبو حاتمٍ السِّجِسْتانيُّ. ابنُ الأنباريِّ: وهذا غَلَطٌ؛ لأنه لا يجوزُ لقائلٍ أنْ يقولَ: واللهِ قام زيدٌ؛ على معنى: قام زيدٌ واللهِ. وقال قومٌ: جوابُ القَسَمِ: «إنَّ بطْشَ ربك لشديد» وهذا قبيحٌ، لأنَّ الكلامَ قد طال بينهما[1].

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟﴾[2]. وقيل: جوابُ القَسَمِ محذوفٌ، أي: والسماءِ ذاتِ البروجِ لَتُبْعَثُنَّ. وهذا اختيارُ ابنِ الأنباريِّ[3]. والأخدودُ: الشقُّ العظيمُ المستطيلُ في الأرض كالخندق، وجَمْعُه أخاديد. ومنه الخدُّ، لمجاري الدموع، والمخدَّةُ، لأنَّ الخدَّ يوضعُ عليها[4]. ويقال: تَخدَّد وجه الرجلِ: إذا صارتْ فيه أخاديدُ من جِراحٍ، قال طَرَفة:

ووجهٌ كأنَّ الشمسَ حَلَّتْ رداءها عليه نَقيُّ اللونِ لم يَتَخدَّدِ[5]

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾«النارِ» بدلٌ من «الأخدودِ» بدلُ الاشتمال. و«الوَقود» بفتحِ الواو قراءةُ العامَّةِ، وهو الحَطَبُ. وقرأ قتادةُ وأبو رجاءٍ ونصر بنُ عاصم بضمِّ الواوِ على المصدر[6]، أي: ذاتِ الاتِّقادِ والالتهابِ. وقيل: ذاتِ الوُقودِ بأبدان الناس. وقرأ أشهبُ العُقَيْليُّ وأبو السَّمَّالِ العَدَويُّ وابنُ السَّمَيْفَع: «النارُ ذاتُ» بالرفعِ فيهما[7]، أي: أَحْرقَتْهم النارُ ذاتُ الوقود.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٢- ٩٧٣ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤١ .

(٥) ديوان طرفة ص٢١ . قوله: ووجْهٌ، أي: ولها وجهٌ، ومعنى حلت رداءها عليه: قَلَعتْه وأَلْبَسَتْه إياه. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٥٩ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ١٩٢ عن أبي عبد الرحمن السلمي. وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦٢ دون نسبة.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي: الذين خدَّدوا الأخاديدَ وقَعَدوا عليها يُلْقونَ فيها المؤمنين، وكانوا بنَجْرانَ في الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقد اختلفت الروايةُ(١) في حديثهم. والمعنى متقارِبٌ. ففي«صحيح» مسلم عن صُهَيب: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «كانَ مَلِكٌ فيمَن كان قَبْلَكم، وكان له ساحرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للملك: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابْعَثْ إليَّ غلاماً أُعَلِّمْه السِّحْرَ، فبعَثَ إليه غلاماً يعلِّمُه، فكان في طريقه إذا سَلَك راهبٌ، فَقَعَدَ إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجبه، فكان إذا أَتَى السَّاحرَ مرَّ بالراهبِ وقَعَدَ إليه، فإذا أَتَى السَّاحر ضَرَبَه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خَشِيْتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسني أَهْلي. وإذا خَشيت أَهْلَك فقُلْ: حَبَسني السَّاحرُ. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَت الناسَ، فقال: اليومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أفْضَلُ أم الراهبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حجراً فقال: اللهمَّ إنْ كان أمرُ الراهبِ أحبَّ إليكَ من أَمْر السَّاحرِ فاقْتُلْ هذه الدابةَ حتى يمضي الناسُ، فرماها فقتلها، ومضى الناسُ. فَأَتى الراهبَ فَأَخْبَره، فقال له الراهبُ: أي بنيَّ، أنت اليومَ أفضلُ منِّي، قد بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ ما أرى، وإنَّك ستُبْتَلَى، فإنِ ابتُلِيْتَ فلا تَدُلَّ عليَّ. وكان الغلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، ويُداوي الناسَ من سائرِ الأَدْوَاءِ. فسمع جليسٌ للملك كان قد عَمِي، فأتاه بهدايا كثيرةٍ فقال: ماهاهُنا لك أَجْمعُ إنْ أنتَ شَفَيْتَني. فقال: إنِّي لا أَشْفي أحداً، إنَّما يَشْفي اللهُ، فإنْ أنتَ آمنتَ بالله دَعَوْتُ الله فشَفَاكَ، فآمَنَ بالله فشَفَاه الله. فأتَى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملكُ: مَنْ رَدَّ عليك بَصَرَكَ؟ قال: ربِّي. قال: ولكَ ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّكَ اللهُ. فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعذِّبُه حتى دَلَّ على الغلام، فجيءَ بالغلام فقال له الملكُ: أي بنيَّ! قَدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَه والأَبْرصَ، وتَفْعلُ وتفعلُ؟! قال: إنِّي لا أَشْفي أحداً، إنَّما يَشْفي اللهُ. فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعذِّبه حتى دَلَّ على الراهب، فجيءَ بالراهب، فقيل له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأَبَى، فدعا بالمنشار، فوَضَعَ المنشار في مَفْرِق رأسِه، فشقَّه حتى

(١) في(م): الرواة.

وقع شِقَّاه. ثم جيءَ بجليسِ الملِكِ فقيل له: ارجعْ عن دينِكَ، فأبى، فوضَعَ المنشارَ في مَفرق رأسِه، فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيلَ له: ارْجِعْ عن دِينِكَ، فأبى، فدَفَعه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذْهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصْعَدوا به الجبل، فإذا بلغتُم ذِرْوَتَه، فإنْ رَجَع عن دينه، وإلَّا فاطْرَحوه، فَذَهبوا به فصَعِدوا به الجبل، فقال: اللهمَّ اكْفِنِيهِم بما شِئْتَ، فرَجَفَ بهم الجبلُ فسَقَطوا. وجاء يمشي إلى الملِكِ، فقال له الملك: ما فَعَلَ أصحابكَ؟! قال: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَه إلى نَفَرٍ من أصحابه فقال: اذْهَبوا به فاحمِلوه في قُرْقُور[1]، فتوسَّطوا به البحرَ، فإنْ رَجَع عن دينه، وإلَّا فاقْذِفوه، فذهبوا به فقال: اللهمَّ اكْفِنِيهِم بما شِئْتَ، فانْكَفأَتْ بهم السفينةُ فغرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملكُ: ما فَعَل أصحابُك؟! قال: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فقال للملك: إنَّك لَسْتَ بقاتِلي حتى تَفْعَل ما آمرُكَ به. قال: وما هو؟ قال: تَجْمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصْلُبُني على جِذْعٍ، ثم خُذْ سهماً من كِنانَتي، ثم ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثم قل: بِاسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم ارْمِني، فإنَّك إذا فعلتَ ذلك قَتَلْتني. فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذْعٍ، ثم أَخَذَ سهماً من كنانته، ثم وضع السهمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثم قال: باسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم رماه فوقع السهمُ في صُدْغِه، فوضَعَ يَده في صُدْغِه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمَنَّا بربِّ الغلامِ! آمنَّا بربِّ الغلامِ! آمنَّا بربِّ الغلامِ! فأُتي الملِكُ فقيل له: أرأيتَ ما كنتَ تَحْذَرُ؟ قد واللهِ نَزَلَ بك حَذَرُكَ، قد آمنَ الناسُ، فأَمر بالأُخدودِ في أفواه السِّكَكِ، فخُدَّت، وأَضْرِمَ النيرانَ، وقال: من لم يَرْجِعْ عن دِينهِ فأَحْموه فيها[2] ـ أو قيل له: اقْتَحِمْ ـ ففعلوا، حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعَسَتْ أن تقع فيها، فقال لها الغلامُ: «ياأُمَّهْ اصْبِرِي فإنَّكِ على الحقِّ»[3].

---

(١) هو السفينة العظيمة، وجمعها قراقير. النهاية (قرقر).

(٢) أي: ارموه فيها، شرح النووي لصحيح مسلم ١٨/ ١٣٣ .

(٣) صحيح مسلم (٣٠٠٥)، وهو عند أحمد (٢٣٩٣١).

خرَّجه الترمذيُّ بمعناه، وفيه: «وكان على طريق الغلامِ راهبٌ في صومعةٍ» قال معمر: أَحْسَبُ أنَّ أَصحابَ الصَّوامع كانوا يومئذٍ مسلمين. وفيه: أنَّ الدابةَ التي حَبَستِ الناس كانت أَسَداً، وأنَّ الغلام دُفِنَ، قال: فيُذْكَر أنه أُخرِجَ في زمن عمر بن الخطاب وأصبعهُ على صِدْغِه كما وَضَعَهَا حين قُتِل. وقال: حديثٌ حسنٌ غريب[1].

ورواه الضحاك عن ابن عباس قال: كان مَلِكٌ بنَجْران، وفي رعيته رجُل له بُنَيٌّ[2]، فبعثه إلى ساحرٍ يعلِّمه السِّحرَ، وكان طريقُ الفتى على راهبٍ يقرأ الإنجيل، فكان يُعْجِبُه مايَسْمَعهُ من الراهب، فدخل في دينِ الراهبِ، فأقبل يوماً فإذا حيةٌ عظيمةٌ قَطَعتْ على الناس طريقَهم، فأخذ حجراً فقال: باسم الله ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينَهما، فقتلها. وذَكَر نحوَ ما تقدَّم. وأنَّ الملك لَمَّا رماه بالسَّهم وقَتَلَه، قال أهلُ مملكةِ الملكِ: لا إله إلَّا إلهُ عبدِ الله[3] بن ثامرٍ ـ وكان اسمَ الغلام ـ فغضب الملك، وأمر فخُدَّتْ أخاديدُ، وجُمِع فيها حطبٌ ونارٌ، وعَرَضَ أهلَ مملكته عليها، فَمَن رَجَعَ عن التوحيد تَرَكَه، ومَن ثَبَتَ على دِينه قَذَفه في النار. وجيءَ بامرأةٍ مُرْضعٍ، فقيل لها: ارجِعي عن دينك وإلا قذفناكِ وولَدَكِ، قال: فأَشْفَقتْ وهَمَّتْ بالرجوع، فقال لها الصَّبيُّ المُرْضَع: يا أمِّي، اثْبُتي على ما أنتِ عليه، فإنَّما هي غُمَيْضَةٌ، فَأَلْقَوْها وابنَها.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: أنَّ النار ارتفعتْ من الأخدودِ فصارت فوقَ الملكِ وأصحابِه أربعينَ ذراعاً فَأَحْرَقَتْهم[4].

وقال الضحاك: هم قومٌ من النصارى كانوا باليمن قبل مَبْعَثِ رسول الله ﷺ بأربعين سنةً، أَخَذَهم يوسف بنُ شراحيل بن تُبَّع الحميريُّ، وكانوا نيفاً وثمانين

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٠).

(٢) في (م): فتى.

(٣) في النسخ: لا إله إلا الله عبد الله، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٤٦٩ والخبر فيه بنحوه من طريق عطاء عن ابن عباس، وذكره مطولاً الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٣٩-٤٤١ ، وفيه: لا إله إلا الله آمنا بدين عبد الله...

(٤) ذكر نحوه الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٤٢ عن الكلبي.

رجلاً، وحَفَر لهم أُخدوداً وأَحْرقَهم فيه. حكاه الماورديُّ[١]. وحَكَى الثعلبيُّ عنه: أنَّ أصحابَ الأخدودِ من بني إسرائيل، أَخَذوا رجالاً ونساءً، فخدُّوا لهم الأخاديدَ، ثم أَوْقَدوا فيها النارَ، ثم أُقيم المؤمنون عليها، وقيل لهم: تكفُرونَ أو تُقْذَفون في النار[٢]؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابُه، وقاله عَطِيةُ العَوْفيُّ. ورُوي نحوُ هذا عن ابن عباس[٣].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ مِلِكاً سكِر فوقعَ على أُخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رَعيَّته، فلم يقبلوا، فأشارتْ إليه أنَّ يخطُبَ بأنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ أَحَلَّ نكاحَ الأَخواتِ، فلم يُسْمَعْ منه، فأشارتْ عليه أن يخُدَّ لهم الأخدودَ، ويُلقي فيه كلَّ من عَصَاه، ففعل. قال: وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوسُ، وكانوا أهلَ كتاب[٤].

ورُوي عن عليٍّ أيضاً أنَّ أصحاب الأخدودِ كان سببُهم أنَّ نبيًّا بَعَثه الله تعالى إلى الحبشة، فاتَّبعه ناسٌ، فخدَّ لهم قومُهم أخدوداً، فَمَن اتَّبع النبيَّ رُمي فيها، فجيءَ بامرأةٍ لها بُنَيٌّ رضيعٌ فجزِعتْ، فقال لها: يا أمَّاه، امْضي ولا تَجْزعي[٥].

وقال أيوب عن عِكرمةَ قال: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قال: كانوا من قومِكَ من السِّجِسْتان. وقال الكلبيُّ: هم نصارى نجران، أَخَذوابها قوماً مؤمنين، فخدُّوا لهم سبعةَ أخاديد، طولُ كلِّ أخدودٍ أربعون ذراعاً، وعرضُه اثنا عَشَر ذراعاً. ثم طُرِحَ فيه النِّفْطُ والحطبُ، ثم عَرَضوهم عليها، فَمَنْ أَبَى قَذَفوه فيها. وقيل: قومٌ من النصارى كانوا بالقُسْطَنْطينيةِ زمانَ قُسْطَنطين.

وقال مقاتل: أصحابُ الأخدودِ ثلاثةٌ، واحدٌ بنجرانَ، والآخرُ بالشَّامِ، والآخَرُ

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٤٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٢ من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، وذكره عن عطية الماوردي ٦/ ٢٤٢ .

(٤) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٢٧٠-٢٧١ .

(٥) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٣٣ ، وذكره البغوي ٤/ ٤٦٩ .

بفارس. أمَّا الذي بالشامِ، فأنطنيانوس الروميُّ، والذي بفارس بختنصَّر، والذي بأرض العربِ يوسف بن ذي نُواس. فلم يُنْزِل الله في الذي بفارس والشام قرآناً، وأنزل قرآناً في الذي كان بنجرانَ. وذلك أنَّ رجلين مسلمين كان أحدُهما بتهامةَ، والآخرُ بنجران، آجَرَ أحدُهما نفسَه، فجعل يعملُ ويقرأُ الإنجيلَ، فرأت ابنةُ المستأجر النور في قراءة الإنجيل، فأَخْبرتْ أباها فأسْلَم. وبلغوا سبعةً وثمانين بين رجلٍ وامرأةٍ، بعدَ ما رُفع عيسى، فخدَّ لهم يوسف بنُ ذي نُواس بن تُبَّع الحِميريُّ أُخدوداً، وأَوْقَد فيه النارَ، وعَرَضهم على الكفر، فَمَن أَبَى أنْ يكفر قَذفه في النار، وقال: مَن رجع عن دين عيسى لم يُقْذَف. وإنَّ امرأةً معها ولدُها صغيرٌ لم يتكلَّم، فرجعت، فقال لها ابنُها: ياأمَّاه، إنِّي أرى أمامك ناراً لا تُطْفَأ، فقَذَفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها اللهُ وابنَها في الجنة. فقُذِفَ في يومٍ واحدٍ سبعةٌ وسبعون إنساناً[1].

وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبِّهٍ: كان رجلٌ من بقايا أهلِ دينِ عيسى ابن مريم عليه السلام، يقال له: قيميون، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً، زاهداً في الدنيا، مُجابَ الدعوة، وكان سائحاً في القرى، لا يُعْرَفُ بقريةٍ إلَّا مَضَى عنها، وكان بَنَّاءً يعملُ الطِّين[2].

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: وكان أَهلُ نَجْرانَ أهلَ شِرْكٍ يعبدون الأصنام، وكان في قريةٍ من قُراها قريباً من نجران ساحرٌ يعلِّم غلمانَ أهلِ نجران السِّحرَ، فلمَّا نزل بها قيميون، بنى بها خيمةً بين نجرانَ وبين تلك القريةِ التي بها السَّاحر، فجعل أهلُ نجران يبعثون غلمانَهم إلى ذلك الساحرِ يعلِّمهم السِّحرَ، فبعث إليه الثامر عبدَالله ابنَ الثامر، فكان مع غلمانِ أهلِ نجران، فكان عبدُ الله إذا مرَّ بصاحبِ الخيمةِ أَعْجبَه ما يرى من أمرِ صَلاتِه وعبادته، فجعل يجلسُ إليه ويسمعُ منه، حتى أَسْلَم، فوحَّد الله

(١) ذكره بنحوه البغوي ٤/ ٤٦٩-٤٧٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣١-٣٢ .

وعَبَدَه، وجعل يسألهُ عن اسمِ اللهِ الأعظم، وكان الراهبُ يعلِّمه، فَكَتَمَه إياه وقال: يا ابن أخي، إنَّك لن تَحْمِلَه، أخشى ضَعْفَكَ عنه، وكان أبوه الثامرُ لايظنُّ إلَّا أنَّ ابنَه يختلفُ إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلمَّا رأى عبدُ الله أنَّ الراهبَ قد بَخِلَ عليه بتعليم اسم الله الأعظم، عمدَ إلى قِداحٍ فجمعَها، ثم لم يُبْقِ للهِ تعالى اسماً يعلَمُه إلَّا كتبه في قِدْح، لكلِّ اسمٍ قِدْحٌ، حتى إذا أحصاها أَوْقَدَ لها ناراً، ثم جعل يقذفُها فيها قِدْحاً قِدْحاً، حتى إذا مرَّ بالاسم الأَعْظَمِ قذف فيها بقِدْحِه، فوثَبَ القِدْحُ حتى خرج منها لم يضرَّه شيءٌ، فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد عَلِمَ اسمَ الله الأعظمَ الذي كَتَمه إياه؛ فقال: وماهو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف عَلِمْتَه؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابن أخي، قد أَصَبْتَه، فأمْسِكْ على نفسك، وما أظنُّ أنْ تَفْعَلَ. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يَبْقَ أحدٌ به ضُرٌّ إلَّا قال: يا عبد الله، أَتُوَحِّدُ الله وتَدْخُلُ في ديني، فأَدْعوَ الله لك فيعافِيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم، فيوحِّد الله ويُسْلِم، فيدعو الله له فيشفَى، حتى لم يَبْقَ أحدٌ بنجران به ضرٌّ إلَّا أتاه فاتَّبعه على دينه، ودعا له فعُوفي، حتى رُفِع شأنُه إلى مَلِكِهم، فدعاه فقال له: أَفْسَدْتَ عليَّ أهلَ قريتي، وخالَفْتَ ديني ودين آبائي، فلأُمثِّلَنَّ بك. قال: لا تقدرُ على ذلك. فجعل يرسلُ به إلى الجبل الطويل، فيُطْرَحُ عن رأسه، فيقعُ على الأرض ليس به بأسٌ. وجعل يبعثُ به إلى مياهِ نجرانَ، بحار لا يُلْقَى فيها شيءٌ إلَّا هَلَكَ، فيُلْقَى فيها فيخرجُ ليس به بأسٌ، فلمَّا غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدرُ على قتلي حتى توحِّدَ الله وتؤمنَ بما آمنتُ به، فإنك إن فعلتَ ذلك سُلِّطْتَ عليَّ وقَتَلْتني. فوحَّد الله ذلك الملكُ وشَهِدَ شهادتَه، ثم ضَرَبه بعصاً فشجَّه شجةً صغيرةً ليست بكبيرةٍ، فقتله، وهَلَكَ الملك مكانهُ، واجْتَمَعَ أهلُ نجرانَ على دينِ عبد الله بن الثَّامِر، وكان على ما جاء به عيسى ابنُ مريم من الإنجيل وحُكْمِه. ثم أصابهم ما أصاب أهلُ دينهم من الأحداث، فَمِن ذلك كان أصلُ النصرانيةِ بنجرانَ. فسار إليهم ذو نُواس اليهوديُّ بجنوده من حِمْير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيَّرهم بين ذلك أو

القتلِ، فاختاروا القتلَ، فخدَّ لهم الأخدودَ؛ فحرَّق بالنار وقَتَلَ بالسيف، ومَثَّل بهم حتى قَتَلَ منهم عشرين ألفاً[١]. وقال وهب ابن منبه: اثني عَشَر ألفاً. وقال الكلبيُّ: كان أصحابُ الأخدودِ سبعين ألفاً[٢].

قال وهبٌ: ثم لمَّا غَلَبَ أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق. قال ابن إسحاق: وذو نُواس هذا اسمُه زُرْعةُ بنُ تُبَّان أسعد الحميريُّ، وكان أيضاً يسمَّى يوسف، وكان له غَدَائرُ من شعرٍ تَنُوسُ، أي: تضطربُ، فسُمِّي ذا نُواس، وكان فَعَلَ هذا بأهلِ نجران، فأفْلَتَ منهم رجلٌ اسمُه دَوْسٌ ذو ثُعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نُواس في البحر، أَلْقَى نفسَه فيه[٣]، وفيه يقولُ عمرو بن معدي كَرِب:

أَتُوْعِدني كأنَّك ذو رُعَيْنٍ ... بأَنْعَمِ عِيشةٍ أو ذو نُواسِ

وكائن كان قبلَك من نَعِيم ... ومُلْكٍ ثابتٍ في الناس راسِ

قديمٍ عهدُه من عهدِ عادٍ ... عظيمٍ قاهرِ الجبروتِ قاسِ

أزالَ الدهرُ مُلْكَهم فأَضْحَى ... يُنَقَّل من أناسٍ في أناسِ[٤]

وذو رُعينٍ: ملكٌ من ملوك حمير. ورُعَينٌ حصنٌ له، وهو من ولد الحارث بن عمرو بن حمير بن سَبَأ.

مسألة: قال علماؤنا: أَعْلَم الله عزَّ وجلَّ المؤمنين من هذه الأمةِ في هذه الآية ما كان يلقاه مَن وَحَّد قبلهم من الشدائد، يُؤَنِّسهم بذلك. وذكر لهم النبيُّ ﷺ قصةَ الغلامِ لِيَصْبِروا على ما يلاقون من الأذى و الآلام، والمَشقَّات التي كانوا عليها، ليتأسَّوْا

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤-٣٥.

(٢) ذكر القولين الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٤٢.

(٣) التعريف والإعلام ص١٨٢، وبنحوه في سيرة ابن هشام ١/ ٣٠ و٣١ و٣٧.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠، وعرائس المجالس ص٤٤٢ وصدر البيت الأخير فيهما: فأمسى أهله بادوا وأمسى...

بمثل هذا الغلام في صبره وتصلُّبه في الحقِّ وتمسُّكه به، وبَذْلِه نَفْسَه في حقِّ إظهارِ دعوته، ودخولِ الناس في الدين، مع صِغَرِ سنِّه وعظيمِ صَبْرِهِ. وكذلك الراهبُ صبر على التمسُّك بالحقِّ حتى نُشِرَ بالمنشار. وكذلك كثيرٌ من الناس لمَّا آمنوا بالله تعالى وَرَسَخَ الإيمانُ في قلوبهم، صبروا على الطَّرْح في النار ولم يرجعوا في دينهم[١]. ابن العربيِّ: وهذا منسوخٌ عندنا، حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه في سورة النحل[٢].

قلت: ليس بمنسوخٍ عندنا، وإنَّ الصَّبر على ذلك لِمَن قَوِيَتْ نَفْسُه وصَلُب دينُه أَوْلَى، قال الله تعالى مُخْبِراً عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧]. وروى أبو سعيد الخدريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ من أَعْظَمِ الجهادِ كلمةَ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائرٍ»: خرَّجه الترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ غريب[٣].

ورَوَى ابن سنجر ـ محمد بنُ سنجر ـ عن أميمةَ مولاة النبيِّ ﷺ قالت: كنتُ أوضِّئُ النبيَّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: أَوْصِني. فقال: «لاتُشْرِكْ بالله شيئاً وإنْ قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ بالنار...» الحديث[٤].

قال علماؤنا: ولقد امتُحِنَ كثيرٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ بالقتل والصَّلب والتعذيب الشديد، فصَبَروا ولم يلتفتوا إلى شيءٍ من ذلك، ويكفيكَ قصةُ عاصمٍ وخُبيبٍ

---

(١) المفهم ٧/ ٤٢٦، وفيه: .... ولم يرجعوا عن دينهم.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٠٤، وينظر أحكام القرآن ٣/ ١١٦٥ وما بعدها، وينظر ما سلف ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها.

(٣) سنن الترمذي (٢١٧٤)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وله شاهد من حديث أبي أمامة ﷺ سلف ١٤/ ٤٥١. وآخر من حديث طارق بن شهاب عند أحمد (١٨٨٢٨)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٦١.

(٤) لعله في مسند ابن سنجر، وقد سلف الكلام عنه ٥/ ١٤، و أخرجه مطولاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٤٧)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٤٧٩). وأخرجه عبد بن حميد (١٥٩٤) من حديث أم أيمن رضي الله عنها. وينظر الإصابة ١٢/ ١٤١.

وأصحابِهما، ومالَقُوا[١] من الحروبِ والمحنِ والقتلِ والأسرِ والحَرْقِ، وغير ذلك، وقد مضى في «النحل» أنَّ هذا إجماعٌ ممن قَوِيَ في ذلك، فتأمَّلْه هناك[٢].

قول تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ دعاءٌ على هؤلاء الكفَّار بالإبعاد من رحمة الله تعالى.

وقيل: معناه: الإخبارُ عن قَتْلِ أولئك المؤمنين، أي: إنهم قُتلو بالنار فصَبروا.

وقيل: هو إخبارٌ عن أولئك الظالمين، فإنه رُوي أنَّ الله قَبَضَ أرواح الذين أُلْقُوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار، وخرجتْ نارٌ من الأخدود فأَحْرقَت الذين هم عليها قعود[٣]. وقيل: إنَّ المؤمنين نَجَوا، وأَحْرقَت النارُ الذين قعدوا، ذكره النحاس[٤].

ومعنى«عليها» أي: عندها، وعلى بمعنى عند. وقيل: «عليها»: على ما يدنو منها من حافاتِ الأخدود، كما قال:

وباتَ على النارِ النَّدى والمحلَّقُ[٥]

والعامل في«إذ»: «قُتِل»، أي: لُعنوا في ذلك الوقت.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾أي: حضورٌ، يعني الكفارَ، كانوا يعرِضون الكفرَ على المؤمنين، فَمَن أَبى أَلْقَوْه في النار، وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجِدِّ في ذلك.

---

(١) يعني أصحاب النبي ﷺ عامةً، والكلام من المفهم ٧/ ٤٢٦ .

(٢) ينظر ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها، وسلفت قصة عاصم وخبيب وأصحابهما ١٣/ ٣٤٣ وما بعد .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٧٦ عن الربيع بن أنس قوله.

(٤) وذكره كذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣ وقال: هو أشبه بالصواب.

(٥) وصدره: تُشَبُّ لمَقْرورَيْنِ يصطليانها. والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٢٧٥ ، من قصيدة في مدح المحلَّق بن حنتم بن شداد. قال الشارح: أي: بات عليها اثنان يستدفئان من البرد ويَسْمُران، هما الكرَم والمحلَّق.

وقيل: «على» بمعنى مع، أي: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وقرأ أبو حَيْوة: «نَقِموا» بالكسر، والفصيحُ هو الفتح[1]، وقد مضى في «براءة» القولُ فيه[2]، أي: ما نَقَم الملِكُ وأصحابُه من الذين حَرَّقهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: إلَّا أنْ يصدِّقوا ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الغالبِ المنيعِ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمودِ في كلِّ حال. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ لاشريكَ له فيهما ولانديدَ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالمٌ بأعمالِ خَلْقِه لاتَخْفَى عليه خافيةٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾أي: حَرَّقوهم بالنار. والعربُ تقول: فَتَنَ فلانٌ الدرهمَ والدينارَ: إذا أَدْخَلَه النارَ[3] لينظرَ جودَتَه. ودينارٌ مفتونٌ. ويسمَّى الصَّائغ: الفتَّان، وكذلك الشيطانُ، ووَرِقٌ فَتِين، أي: فضةٌ مُحْرَقةٌ[4]. ويقال للحَرَّة[5]: فَتين، أي: كأنها[6] أُحْرِقَتْ حجارتُها بالنار، وذلك لسَوادها.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾أي: مِن قبيحِ صَنيعِهم مع ما أَظْهَره الله لهذا الملِكِ الجبارِ الظالم

(١) الكشاف ٤/ ٢٣٩ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٧١ .

(٢) ١٠/ ٣٠٤ .

(٣) في (د) و(م): الكور.

(٤) في (ظ) و(م): محترقة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (فتن)، والكلام منه.

(٥) الحرَّة: أرض ذات حجارة سودٍ نَخِرةٍ كأنها أحرقت بالنار. الصحاح (حرر).

(٦) في (ي) و(ظ): كأنما.

وقومِه من الآيات البيناتِ على يدِ الغلام. ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكُفْرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ في الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار. وقد تقدَّم عن ابن عباس[1].

وقيل: «ولهم عذاب الحرِيق»، أي: ولهم في الآخرة عذابٌ زائدٌ على عذابِ كُفْرِهم بما أحْرقوا المؤمنين.

وقيل: لهم عذابُ الجحيم وعذابُ الحريق[2]. والحريق: اسمٌ من أسماء جهنم، كالسَّعير. والنارُ دَرَكاتٌ وأنواعٌ ولها أسماء، وكأنَّهم يعذَّبون بالزَّمْهَرير في جهنم، ثم يعذَّبون بعذابِ الحريق. فالأولُ عذابٌ بِبَرْدها، والثاني عذابٌ بحرِّها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله، أي: صدَّقوا به وبرسُله. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من ماءٍ غيرِ آسِنٍ، ومن لَبَنٍ لم يتغيَّر طَعْمُهُ، ومن خَمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٍ من عسلٍ مُصَفًّى. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم، الذي لا فوزَ يُشْبِهه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: أَخْذَه الجبابِرَةَ والظَّلَمَةَ، كقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ * إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. وقد تقدَّم. قال المبرد[3]: «إِنَّ بَطْشَ ربِّك» جوابُ القَسَم. المعنى: والسماءِ ذاتِ البروج إنَّ بَطْشَ ربِّك، وما بينهما معتَرِضٌ مؤكِّدٌ للقَسَم. وكذلك قال التِّرمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[4]: إنَّ القسم واقعٌ على[5] ذِكْرِ صفتِه بالشِّدة.

---

(١) ص١٨٧ من هذا الجزء.

(٢) في (د) و(م): لهم عذاب وعذاب جهنم الحريق.

(٣) في المقتضب ٢/ ٣٣٧ .

(٤) قوله: نوادر الأصول، ليس في (ي) و(ظ)، ولم نقف على هذا الكلام في المطبوع منه.

(٥) في (م): عما.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني الخَلْقَ ـ عند أكثر العلماء ـ يخلُقهم ابتداءً، ثم يعيدُهم عند البعث. وروى عكرمةُ قال: عَجِبَ الكفارُ من إحياءِ اللهِ جلَّ ثناؤه الأمواتَ.

وقال ابن عباس: يبدئُ لهم عذابَ الحريقِ في الدنيا، ثم يعيدُه عليهم في الآخرة. وهذا اختيارُ الطبريِّ(١).

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: السَّتُورُ لذنوبِ عبادِه المؤمنين، لا يفضحُهم بها. ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ أي: المحبُّ لأوليائه. ورَوَى الضحَّاك عن ابن عباس قال: كما يَوَدُّ أحدُكم أخاه بالبشرى والمحبةِ. وعنه أيضاً: «الودود»، أي: المتودِّدُ إلى أوليائه بالمغفرة(٢). وقال مجاهد: الوادُّ لأوليائه، فعولٌ بمعنى فاعِلٍ. وقال ابن زيد: الرحيم(٣).

وحكى المبرِّدُ عن إسماعيل بن إسحاق القاضي: أنَّ الودودَ هو الذي لا وَلَدَ له، وأنشد قولَ الشاعر:

وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ عُرْيانةً ... ذَلولَ الجَناحِ لَقاحاً وَدُودا(٤)

أي: لا ولَد لها تَحِنُّ إليه، ويكونُ معنى الآيةِ: إنه يَغْفِرُ لعباده وليس له ولدٌ يَغْفِرُ لهم من أَجْلِه، ليكونَ بالمَغْفِرة متفضِّلاً من غير جزاء(٥).

وقيل: الودودُ بمعنى المَوْدودِ، كرَكوب وحَلُوب، أي: يَوَدُّه عبادُه الصالحون ويحبُّونه(٦).

---

(١) في التفسير ٢٤/ ٢٨٣، وقول ابن عباس منه.

(٢) ذكره الرازي ٣١/ ١٢٣ عن الكلبي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٤.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٤٣، والبيت في البحر ٨/ ٤٥٢ برواية: ذلول الجماع، وفي الدر المصون ١٠/ ٤٧٨ برواية: خيفانة ذلول الجماح. وورد صدر البيت في ديوان امرئ القيس ص١٦٣. وذكر الرازي ٣١/ ١٢٤، وصاحب اللسان (ورد) البيت برواية:

وأَعددتُ للحرب خَيْفانةً ... جَمُومَ الجِراءِ وَقَاحاً ودودا

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٤٣.

(٦) الوسيط ٤/ ٤٦٢، وتفسير الرازي ٣١/ ١٢٣.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «المجيدِ» بالخفض[١]، نعتاً للعرش. وقيل: لـ «ربِّك»، أي: إنَّ بَطْشَ ربِّك المجيدِ لشديدٌ، ولم يمتنع الفَصْلُ، لأنه جارٍ مجرى الصفةِ في الشديد.

الباقون بالرفع نعتاً لـ «ذو» وهو اللهُ تعالى. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّ المجدَ هو النهايةُ في الكرم والفَضْلِ، والله سبحانه هو المنعوتُ بذلك. وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»، تقول العرب: في كلِّ شجرٍ نارٌ، واسْتَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار[٢]، أي: تَناهَيا فيه، حتى يُقْتَبَس منهما.

ومعنى ذو العرش: أي: ذو المُلْكِ والسُّلْطانِ، كما يقال: فلانٌ على سريرِ مُلْكِه، وإن لم يكن على سرير. ويقال: ثُلَّ عرشُه، أي: ذهب سلطانُه. وقد مضى بيانُ هذا في «الأعراف»[٣] وخاصَّةً في «كتاب الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللهِ الحُسْنَى»[٤].

﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي: لا يمتنعُ عليه شيءٌ يريدهُ. الزمخشريُّ[٥]: «فَعَّالٌ» خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وإنَّما قيل: «فَعَّالٌ» لأنَّ ما يريدُ ويفعلُ في غاية الكَثْرةِ. وقال الفرَّاء: هو رفعٌ على التكرير والاستئناف؛ لأنه نكرةٌ مَحْضَةٌ. وقال الطبريُّ: رُفِعَ «فعالٌ» ـ وهي نكرةٌ مَحْضَةٌ ـ على وجهِ الإتباعِ لإعراب «الغفورُ الودودُ»[٦].

وعن أبي السَّفَرِ قال: دخل ناسٌ من أصحاب النبيِّ ﷺ على أبي بكرٍ ﷺ يَعُودونه

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص٦٧٨، والتيسير ص٢٢١.

(٢) يريد بذكر المثل أن المجد والتمجيد قد يوصف بهما الجمادات، وقد سلف هذا المثل ١٥/ ٦٠. وكذلك حين وصف العرش بالكرم في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦] جاز أن يوصف العرش بالمجد؛ لأن معناه الكمال، والعرش على ما ذكر أحسن شيء وأكمله وأجمعه لصفات الحُسن. ينظر الوسيط٤/ ٤٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣.

(٣) ٩/ ٢٤٠.

(٤) ص١٨٣ وما بعدها.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٣٩.

(٦) ينظر تفسير الطبري ٢٤/ ٢٨٤-٢٨٥.

فقالوا: أَلَا نأتيك بطبيب؟ قال: قد رآني! قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إنِّي فعالٌ لِمَا أُريد[1].

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ أي: قد أتاك يا محمدُ خبرَ الجموعِ الكافرةِ المكذِّبةِ لأنبيائِهم؛ يؤنِّسه بذلك ويُسلِّيه. ثم بَيَّنهم فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وهما في موضعِ جرٍّ على البَدَلِ من «الجنودِ». المعنى: إنَّك قد عَرَفْتَ ما فَعَلَ الله بهم حين كذَّبوا أنبياءَه ورُسُلَه.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك .﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ لك، كدأبِ مَن قَبْلَهم. وإنَّما خص فرعون وثمود؛ لأنَّ ثمودَ في بلاد العرب، وقصتُهم عندهم مشهورةٌ وإن كانوا من المتقدِّمين. وأمرُ فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتَاب وغيرهم، وكان من المتأخِّرين في الهلاك، فدلَّ بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أي: يَقْدِرُ على أن يُنْزِلَ بهم ما أَنزل بفرعون. والمحاطُ به كالمحصور. وقيل: أي: واللهُ عالمٌ بهم فهو يُجازيهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: مُتناهٍ في الشَّرفِ والكرمِ والبركة، وهو بيانُ ما بالناس الحاجةُ إليه من أحكام الدِّين والدنيا، لا كما زعم المشركون. وقيل: «مَجيد»، أي: غيرُ مخلوقٍ.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أي: مكتوبٌ في لوح. وهو محفوظٌ عند الله تعالى من وصول

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ١٩٨ ، وهناد في الزهد (٣٨٢)، وأبو السَّفَر هو سعيد بن يُحْمِد الهمدانيُّ الكوفي، من رجال التهذيب.

الشياطين إليه. وقيل: هو أمُّ الكتاب، ومنه انتسخَ القرآنُ والكتب.

وروى الضحَّاك عن ابن عباس قال: اللوحُ من ياقوتةٍ حمراءَ، أعلاه معقودٌ بالعرش وأسفلُه في حِجْرِ مَلَكٍ يقال له: ماطريون، كتابُه نورٌ، وقَلَمُه نورٌ، ينظر الله عزَّ وجلَّ فيه كلَّ يومٍ ثلاثَ مئةٍ وستِّين نظرةً، ليس منها نظرةٌ إلَّا وهو يفعلُ ما يشاءُ؛ يرفعُ وضيعاً، ويَضَعُ رفيعاً، ويُغني فقيراً، ويُفْقِرُ غنيّاً؛ يُحيي ويُميتُ، ويفعلُ ما يشاء، لا إلهَ إلَّا هو[1].

وقال أنس بن مالك ومجاهد: إنَّ اللوحَ المحفوظَ الذي ذكره الله تعالى في جَبْهَةِ إسرافيل[2].

وقال مقاتل: اللوحُ المحفوظُ عن يمين العرش[3].

وقيل: اللوحُ المحفوظُ: الذي فيه أصنافُ الخلْقِ والخليقةِ، وبيانُ أمورِهم، وذِكْرُ آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقبِ أمورِهم، وهو أمُّ الكتاب.

وقال ابن عباس: أوَّلُ شيءٍ كَتَبَه الله تعالى في اللوح المحفوظ: إنِّي أنا اللهُ لا إلهَ إلَّا أنا، محمدٌ رسولي، مَن استسلم لقضائي، وصَبر على بلائي، وشَكَر نَعْمائي، كتبتُه صدِّيقاً وبعثتُه مع الصِّدِّيقين، ومَن لم يستسلم لقضائي، ولم يَصْبر على بلائي، ولم يَشْكُر نَعْمائي، فليتَّخِذْ إلهاً سواي[4].

وكتب الحجَّاجُ إلى محمد ابن الحنفية ﷺ يتوعَّدهُ، فكتب إليه ابنُ الحنفيةِ: بلغني

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٥١٩ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٦٣ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه مختصراً بنحوه عبد الرزاق ١/ ٣٨٩ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٧ عن أنس.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٧٢ ، وذكره الألوسي ٣٠/ ٩٤ وقال: وجاء فيه أخبار غير ذلك، ونحن نؤمن به ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته وغير ذلك.

(٤) أخرجه الديلمي كما ذكر المناوي في الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية ص٤٦ .

أنَّ للهِ تعالى في كلِّ يوم ثلاثُ مئةٍ وستِّين نظرةً في اللوح المحفوظ؛ يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَبْتلي ويُفْرِحُ، ويفعلُ ما يريد، فلعلَّ نظرةً منها تَشْغَلُك بنفسك، فتشتغلُ بها ولا تتفرَّغ[١].

وقال بعضُ المفسِّرين: اللوحُ شيءٌ يلوحُ للملائكة فيقرؤونه.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وأبو حَيْوة: «قرآنُ مجيدٍ» على الإضافة[٢]، أي: قرآنُ ربٍّ مجيدٍ.

وقرأ نافعٌ: «في لوحٍ محفوظٌ» بالرفعِ[٣] نعتاً للقرآن، أي: بل هو قرآنٌ مجيدٌ محفوظٌ في لوح. الباقون بالجرِّ نعتاً للَّوح.

والقرَّاءُ متَّفقُون على فتح اللام من «لَوْح»، إلَّا ما روي عن يحيى بن يعمر؛ فإنه قرأ: «في لُوحٍ» بضمِّ اللام[٤]، أي: إنه يَلُوحُ، وهو ذو نورٍ وعلوٍّ وشرف. قال الزمخشريُّ[٥]: واللُّوحُ الهواء، يعني اللُّوح فوقَ السماءِ السابعةِ الذي فيه اللَّوح. وفي «الصِّحاح»[٦]: لاحَ الشيءُ يَلُوحُ لَوْحاً، أي: لَمَحَ[٧]. ولاحَهُ السَّفرُ: غيَّره. ولاحَ لَوْحاً ولُواحاً: عَطِشَ، والْتَاحَ مثلُه. واللَّوحُ: الكَتِفُ، وكلُّ عظمٍ عريضٍ. واللَّوحُ: الذي يُكْتَبُ فيه. واللُّوحُ بالضم: الهواءُ بين السماءِ والأرض. والحمد لله.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦٣ .

(٣) السبعة ص٦٧٨ ، والتيسير ص٢٢١ .

(٤) الكشاف ٤/ ٢٤٠ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٧١ عن اليماني.

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٤٠ .

(٦) مادة (لوح).

(٧) لمح: لمع. مختار الصحاح (لوح).

تفسير سورة البروج

وهى مكية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا رُزَيق بن أبى سلمى ، حدثنا أبو المهزّم ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق [١] .

وقال أحمد : حدثنا أبو سعيد ــ مولى بنى [٢] هاشم ــ حدثنا حماد بنُ عباد السدوسى ، سمعت أبا المهزم يحدث عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات فى العشاء [٣] . تفرد به أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾ .

يقسم الله بالسماء وبروجها ، وهى : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك فى قوله : **﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾** [الفرقان: ٦١] .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : البروج : النجوم . وعن مجاهد أيضا : البروج التى فيها الحرس .

وقال يحيى بن رافع : البروج : قصور فى السماء . وقال المِنْهَال بن عمرو : **﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾** : الخلق الحسن .

واختار ابن جرير أنها : منازل الشمس والقمر ، وهى اثنا عشر برجا ، تسير الشمس فى كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر فى كل واحد يومين وثلثا ، فذلك ثمانية وعشرون منزلة [٤] ،ويستسرّ ليلتين .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢٦) .

(٢) فى م : « مولى ابن » .

(٣) المسند (٢/ ٣٢٧) .

(٤) فى م : « منزلاً » .

وقوله: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ :اختلف المفسرون فى ذلك،وقد قال ابن أبى حاتم:

حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزى [١] ، حدثنا عُبَيد الله ــ يعنى ابن موسى ــ حدثنا موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد بن صفوان بن أوس الأنصارى ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَشَاهِدٍ ﴾ يوم الجمعة . وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه ، ﴿ وَمَشْهُودٍ ﴾ يوم عرفة » [٢] .

وهكذا روى هذا الحديث ابن خُزَيمة ، من طرق عن موسى بن عُبَيدة الربذى ــ وهو ضعيف الحديث ــ وقد روى موقوفا على أبى هريرة ، وهو أشبه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد ، حدثنا شعبة ، سمعت على بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار ــ مولى بنى هاشم ــ عن أبى هريرة ــ أما علىّ فرفعه إلى النبى ﷺ ، وأما يونس فلم يَعْدُ أبا هريرة ــ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : يعنى الشاهدَ يومُ الجمعة ، ويوم مشهود يوم القيامة [٣] .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن يونس ، سمعت عماراً ــ مولى بنى هاشم ــ يحدث عن أبى هريرة وأنه قال فى هذه الآية : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة [٤] .

وقد رُوى عن أبى هريرة أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون فى ذلك ، ولله الحمد .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى ، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيح بن [٥] عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود يوم القيامة ، وإن الشاهد يوم الجمعة ، وإن المشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة ذخره الله لنا» [٦] .

ثم قال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيَّب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سيد الأيام يوم الجمعة ، وهو الشاهدُ ، والمشهود يوم عرفة » [٧] .

---

(١) فى أ : « المقرئ ».

(٢) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٣٣٩) من طريق روح بن عبادة وعبيد الله بن موسى ، عن موسى بن عبيدة به نحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره » .

(٣) المسند (٢/٢٩٨) ووقع فيه : « يعنى الشاهد يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة » .

(٤) المسند (٢/٢٩٨،٢٩٩) .

(٥) فى أ : « عن » .

(٦) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٩٨) عن هاشم بن مرثد ، عن محمد بن إسماعيل به ، وفيه ضعف وانقطاع ، وقد تقدم هذا الإسناد مراراً .

(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٢) .

وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيَّب ، ثم قال ابن جرير :

حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكيع ، عن شعبة ، عن على بن زيد ، عن يوسف المكى ، عن ابن عباس قال : الشاهد هو محمد ﷺ ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴾ [هود:١٠٣] (١) .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن شباك قال : سأل رجل الحسن بن على عن: ﴿ **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾ قال :سألت أحداً قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عمر وابن الزبير ، فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . فقال : لا ، ولكن الشاهد محمد ﷺ . ثم قرأ : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً** ﴾ [النساء:٤١] ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴾ (٢) .

وهكذا قال الحسن البصرى . وقال سفيان الثورى ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب : ﴿**وَمَشْهُودٍ** ﴾ يوم القيامة .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة .

وعن عكرمة أيضا : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة .

[وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة] (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دُكَيْن ، حدثنا سفيان ، عن أبى يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾ قال : الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة . هكذا رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مِهْران ، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد، عن ابن عباس : ﴿ **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾ الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة .

وبه عن سفيان ــ هو الثورى ــ عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة ، يعنى الشاهد والمشهود .

قال ابن جرير : وقال آخرون : المشهود يوم الجمعة . ورووا فى ذلك ما حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى عمى عبد الله بن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا علىَّ من الصلاة يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود ، تشهده الملائكة » (٤) .

وعن سعيد بن جبير : الشاهد : الله ، وتلا ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ [النساء:٧٩] ، والمشهود :

(١ ، ٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٣) .

(٣) زيادة من م ، أ ، والطبرى .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٤) .

نحن . حكاه البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة .

وقوله : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ** ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه : أخاديد ، وهى الحفير فى الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله ، عز وجل، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدُوداً وأججوا فيه نار ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** ﴾ أى: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين .

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قَدَّر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدى الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس .

ثم قال : ﴿ **الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم . فعن على ، رضى الله عنه، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج [١] المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم .

وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدُّوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة ، واحدهم [٢] حَبَشِىٌّ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** ﴾ قال : ناس من بنى إسرائيل ، خَدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء، فعُرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه .

وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم ، وقيل غير ذلك . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن [٣] عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبرت سِنِّى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه

(١) فى أ : « تزوج » . (٢) فى م ، أ : « ونبيهم » . (٣) فى أ : « بن » .

وقالوا: ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر .

قال : فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أىْ بُنَى ، أنت أفضل منى ، وإنك ستُبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمى ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفنى ولك ما ههنا أجمعُ . فقال: ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من رَدّ عليك بصرك؟ فقال : ربى ؟ فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربى وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أىْ بُنَى ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله، عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله . فأخذه أيضا بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ،وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال : إذا بلغتم ذروته،فإن رجع عن دينه وإلا فَدَهدهوه [من فوقه] (١) فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، افكنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال: كافنيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرقُور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرِّقوه فى البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبنى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال: « باسم الله رب الغلام».فوقع السهم فى صدغه،فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد ــ والله ــ نزل بك ، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فَخُدّت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران ، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أماه ، فإنك على الحق » .

(١) زيادة من المسند .

وهكذا رواه مسلم فى آخر الصحيح عن هُدْبَة بن خالد ، عن حماد بن سلمة به نحوه [١] . ورواه النسائى عن أحمد بن سليمان ، عن عفان ، عن حماد بن سلمة[٢] . ومن طريق حماد بن زيد، كلاهما عن ثابت ، به واختصروا أوله . وقد جوّده الإمام أبو عيسى الترمذى ، فرواه فى تفسير هذه السورة عن محمود بن غَيْلانَ وعَبد بن حُمَيد ــ المعنى واحد ــ قالا : أخبرنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ثابت البُنانى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر هَمَس ــ والهَمس فى قول بعضهم : تحريك شفتيه كأنه يتكلم ــ فقيل له: إنك ــ يا رسول الله ــ إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أُعجب بأمته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النقمة ، فسلّط عليهم الموت ، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حدّث بهذا الحديث ، حدّث بهذا الحديث الآخر قال : كان مَلك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له، فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فَهِماً ــ أو قال: فطناً لَقِناً ــ فأعلّمه علمى هذا . . . فذكر القصة بتمامها ، وقال فى آخره [٣] : « يقول الله عز وجل : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** ﴾ » حتى بلغ : ﴿ **الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدْغه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب [٤] .

وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزّى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيب الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يَسَار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر، فيها مخالفة لما تقدم فقال:

حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظى ــ وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها ــ : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها قريباً من نجران ــ ونجران هى القرية العظمى التى إليها جمَاعُ أهل تلك البلاد ــ ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فَيمُون [٥] ــ ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها ــ ابتنى [٦] خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له: يا ابن أخى، إنك لن تحمله ؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدْح،

(١) المسند (٦/١٦) وصحيح مسلم برقم (٣٠٠٥) .
(٢) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٦١) .
(٣) فى أ : « فى أواخره » .
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٠) .
(٥) فى أ : « ميمون » .
(٦) فى م : « فابتنى » .

وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قدْحا قدْحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدْحه ، فوثب القدْح حتى خرج منها لم يضره شىء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال : وما هو : قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ، أتوحدُ الله وتدخلُ فى دينى وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيَشفَى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له : أفسدت علىّ أهل قريتى ، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأُمثلنّ بك . قال: لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فَيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه نجران ، بُحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس .فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك ــ والله ــ لا تقدر على قتلى حتى تُوَحّدَ الله فَتُؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت سُلّطتَ علىّ فقتلتنى. قال: فوحّدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ــ وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، من الإنجيل وحُكمه ــ ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، والله أعلم أىّ ذلك كان .

قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيَّرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخدّ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفا ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز وجل ، على رسوله ﷺ : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (١) .

هكذا ذكر محمد بن إسحاق فى السيرة أن الذى قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه : زرعة ، ويسمَّى فى زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن تبَان أسعد أبى كَرب ، وهو تُبَّع الذى غزا المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدَينة ، فكان تَهَوّد من تَهَوّد من أهل اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مَبسوطاً ، فقتل ذو نواس فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفا ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثَعلبان ، ذهب فارسا ، وطَرَدُوا وراءه فلم يُقدَر عليه ، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة ، فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرياط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدى اليهود ، وذهب ذو نواس هارباً

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤) .

فَلَجَّج فى البحر ، فغرق . واستمر مُلْكُ الحبشة فى أيدى النصارى سبعين سنة ، ثم استنقذه سيف ابن ذى يزن الحميرى من أيدى النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك الفرس ، فأرسل معه من فى السجون ، وكانوا قريباً من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن ، ورجع الملك إلى حمير . وسنذكر طرفاً من ذلك ــ إن شاء الله ــ فى تفسير سورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أنه حُدِّث : أن رجلاً من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ، حَفَر خَرِبَة من خَرِب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْن فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة فى رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها ثَعبتْ دما ، وإذا أرسلت يده رُدّت عليها ، فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه : ربى الله . فكُتِب فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه الدّفنَ الذى كان عليه . ففعلوا [١] .

وقد قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا ، رحمه الله : حدثنا أبو بلال الأشعرى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، حدثنى بعض أهل العلم : أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطا من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلاً صالحاً . فحفر الأساس فوجد فيه رجلا قائماً معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقمت على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط ، فثبت.

قلت: هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مُضاض بن عمرو الجرهمى ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نَبْت [٢] بن إسماعيل بن إبراهيم ، وَوَلَدُ الحارث هذا هو : عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة ، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القائل فى شعره الذى قال ابن هشام [٣] إنه أول شعر قاله العرب :

كَـأن لَم يَكُنْ بَين الحَجُون إلى الصَّفا ... أَنِيسٌ ، ولـم يَسمُر بمكَّـةَ سَامِـرُ
بَلَـى ، نَحـنُ كُنَّـا أهلَـهَا فـأبـادَنَا ... صُروفُ اللَّيالى والجُدودُ العَـوَاثِـرُ

وهذا يقتضى أن هذه القصة كانت قديما بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضى أن قصتهم كانت فى زمان الفترة التى بين عيسى ومحمد، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع فى العالم كثيراً ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع ، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا أتّونا ، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد . وفى العراق فى أرض بابل بختنصر ، الذى وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦) .

(٢) فى م : « ثابت » .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١١٥) .

عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونا وألقى فيه الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما برداً وسلاما ، وأنقذهما منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط ، فأكلتهم النار .

وقال أسباط ، عن السدى فى قوله : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُود** ﴾ قال : كانت الأخدود ثلاثة : خَدّ بالعراق ، وخَدّ بالشام ، وخَدّ باليمن . رواه ابن أبى حاتم .

وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، والأخرى بالشام ، والأخرى بفارس ، أما التى بالشام فهو انطنانوس الرومى ، وأما التى بفارس فهو بختنصر ، وأما التى بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس . فأما التى بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآنا ، وأنزل فى التى كانت بنجران .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكى ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ــ هو ابن أنس ــ فى قوله : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُود** ﴾ قال : سمعنا أنهم كانوا قوماً فى زمان الفترة فلما رأوا ما وقع فى الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزاباً ، ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٥٣،الروم: ٣٢] ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله ﴿ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ [البينة: ٥]، وكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحُدِّث حديثهم ، فأرسل إليهم فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التى اتخذوا [١] ، وأنهم أبوا عليه كلّهم وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده ، لا شريك له . فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التى عبدتُ فإنى قاتلكم . فأبوا عليه ، فخَدَّ أخدودا من نار ، وقال لهم الجبار ــ ووَقفهم عليها ــ : اختاروا هذه أو الذى نحن فيه . فقالوا : هذه أحب إلينا . وفيهم نساء وذرية، ففزعت الذرية ، فقالوا لهم : لا نار من بعد اليوم . فوقعوا فيها ، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حَرّها ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففى ذلك أنزل الله، عز وجل : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُود . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُود . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ .

ورواه ابن جرير : حُدِّثت عن عمار ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، به نحوه [٢] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات** ﴾ أى : حَرَقوا [٣] . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبْزَى .

﴿ **ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا** ﴾ أى : لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا .

﴿ **فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق** ﴾ ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

---

(١) فى أ : « التى اتخذوها » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٨٨) .

(٣) فى م : « حرقوا بالنار » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ [١] ﴾ ، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كَذَّبوا رسله وخالفوا أمره ، لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع . ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخَضَع لديه ، ولو كان الذنب من أى شىء كان .

والودود ــ قال ابن عباس وغيره ــ : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [أى : صاحب العرش] [٢] المعظم [٣] العالى على جميع الخلائق .

و ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ،عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له ــ وهو فى مرض الموت ــ : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال :قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردها عنهم أحد ؟

وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديدا ، أخذ عزيز مقتدر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : مر النبى ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ ، فقام يسمع [٤] ، فقال : « نعم ، قد جاءنى » [٥] .

---

(١) فى أ بعدها : « خالدين فيها » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « العظيم » .
(٤) فى أ : « يستمع » . (٥) وهذا مرسل .

وقوله : ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ** ﴾ أى : هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ** ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ **فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا قُرَّة بن سليمان ، حدثنا حرب بن سُرَيج [(١)] ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك في قوله : ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ قال : إن اللوح المحفوظ الذى ذكر الله : ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ ، فى جبهة إسرافيل [(٢)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح : أن أبا الأعْيَس ــ هو عبد الرحمن بن سَلْمَان ــ قال : ما من شىء قضى الله ــ القرآن فما قبله وما بعده ــ إلا وهو فى اللوح المحفوظ . واللوح المحفوظ بين عينى إسرافيل ، لا يؤذن له بالنظر فيه .

وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

وقد روى البغوى من طريق إسحاق بن بشر [(٣)] : أخبرنى مقاتل وابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إنه فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله ، أدخله الجنة . قال : واللوح لوح من درة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك [(٤)] .

قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن ليث ، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق لوحاً محفوظاً من دُرَّة بيضاء ، صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قَلَمه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ، ويفعل ما يشاء » [(٥)] .

آخر تفسير سورة « البروج » ولله الحمد [(٦)]

---

(١) فى أ : « شريح » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ٩٠) .

(٣) فى أ : « بشير » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٨/ ٣٨٩) .

(٥) المعجم الكبير (١٢/ ٧٢) وزياد وليث بن أبى سليم ضعيفان ، وقد جاء موقوفاً على ابن عباس ، رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٣١٦) من طريق بكير بن شهاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس بنحوه .

(٦) فى أ : « والله أعلم » .

٨٥ — سورة البروج
(مكية وهى إثنتان وعشرون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ ٨٥ البروج

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ ٨٥ البروج

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ٨٥ البروج

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٨٥ البروج

﴿ سورة البروج مكية وآيها إثنتان وعشرون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والسماء ذات البروج) هى البروج الإثنا عشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات ويكون فيها الثوابت أو منازل القمر أو عظام الكواكب سميت بروجا لظهورها أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها وأصـل التركيب للظهور (واليوم الموعود) أى يوم القيامة ٢
٣ (وشاهد ومشهود) أى ومن يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق وما يحضر فيه من العجائب وتنكيرهما للإبهام فى الوصف أى وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما أو للمبالغة فى الكثرة وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم والمشهود يوم القيامة وقيل عيسى عليه السلام وأمته لقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا الخ وقيل أمة محمد وسائر الأمم وقيل يوم التروية ويوم عرفة وقيل يوم عرفة ويوم الجمعة وقيل الحجر الأسود والحجيج وقيل الأيام والليالى وبنو آدم وعن الحسن مامن يوم إلا وينادى إنى يوم جديد وإنى على مايعمل فى شهيد فاغتنمنى فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم القيامة وقيل الحفظة وبنو آدم وقيل الأنبياء ومحمدعليهم الصلاة والسلام (قتل أصحاب الأخدود) قيل هو جواب ٤ القسم على حذف اللام منه للطول والأصل لقتل كما فى قول من قال [حلفت لها بالله حلفة فاجر * لناموا فما أن من حديث ولا صال] وقيل تقديره لقد قتل وأياً ما كان فالجملة خبرية والأظهر أنها دعائية دالة على الجواب كأنه قيل أقسم بهذه الأشياء أنهم أى كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان وصبرهم عليه من الإيمان وتصبيرهم على أذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وصبرهم على ذلك حتى يأتسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أن هؤلاء عند الله عز وجل

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ ٨٥ البروج

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ ٨٥ البروج

بمنزلة أولئك المعذبين ملعونون مثلهم أحقاء بأن يقال فيهم ماقد قيل فيهم وقرىء قتل بالتشديد والأخدود الخد فى الأرض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الخق والأخقوق . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر وكان فى طريق الغلام راهب فسمع منه فرأى فى طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس قيل كانت الدابة أسداً فأخذ حجراً فقال اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فقتلها فكان الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص ويشفى من الأدواء وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله من رد عليك بصرك فقال ربى فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فلم يرجع الراهب عن دينه فقد بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا فذهب به إلى قرقور فلججوا به ليغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا وقال للملك لست بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهماً من كنانتى وتقول باسم الله رب الغلام ثم ترمينى به فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه ومات فقال الناس آمنا برب الغلام فقيل للملك نزل بك ماكنت تحذر فأمر بأخاديد فى أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست فقال الصبى يا أماه اصبرى فإنك على الحق فاقتحمت وقيل قال لها قعى ولا تنافقى ماهى إلا غميضة فصبرت قيل أخرج الغلام من قبره فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل وعن على رضى الله عنه أن بعض ملوك المجوس وقع على أخته وهو سكران فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له المخرج أن تخطب بالناس فتقول إن الله قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك إن الله قد حرمه فخطب فلم يقبلوا منه فقالت له أبسط فيهم السوط ففعل فلم يقبلوا فقالت أبسط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا فأمر بالأخاديد وإيقاد النار وطرح من أبى فيها فهم الذين أرادهم الله تعالى بقوله قتل أصحاب الأخدود وقيل وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودى بجنود من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثنى عشر ألفاً فى الأخاديد وقيل سبعين ألفاً وذكر أن طول الأخدود أربعون

٥ ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا (النار) بدل اشتمال من الأخدود (ذات الوقود) وصف لها بغاية العظم وارتفاع اللهب وكثرة مايوجبه من الحطب وأبدان الناس وقرىء الوقود بالضم وقوله تعالى

٦ (إذ هم عليها قعود) ظرف لقتل أى لعنوا حين احدقوا بالنار قاعدين حولها فى مكان مشرف عليها من حافات الأخدود كما فى قوله [وبات على النار الندى والمحلق] .

وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ — ٨٥ البروج

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ — ٨٥ البروج

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ — ٨٥ البروج

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ — ٨٥ البروج

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ — ٨٥ البروج

---

٧ (وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود) أى يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً لم يقصر فيما أمر به أو أنهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وقيل على بمعنى مع والمعنى وهم مع مايفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لايرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وتنطق به الروايات المشهورة وقد روى أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين فى النار وهم قعود حولها علقت بهم النار فأحرقتهم ونجى الله عز وجل المؤمنين منها سالمين وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواحدى وعلى ذلك حملا قوله تعالى ولهم عذاب الحريق ٨ (وما نقموا منهم) أى ما أنكروا منهم وما عابوا (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) استئناف مفصح عن براءتهم * عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله [ولا عيب فيهم غير أن ضيوفهم * تلام بنسيان الأحبة والوطن] ووصفه تعالى بكونه عزيزاً غالباً يخشى عقابه وحميداً منعما يرجى ثوابه وتأكيد ذلك بقوله تعالى (الذى له ملك السموات والأرض) للإشعار بمناط إيمانهم وقوله تعالى (والله على كل شىء ٩ شهيد) وعد لهم ووعيد شديد لمعذبيهم فإن علمه تعالى بجميع الأشياء التى من جملتها أعمال الفريقين يستدعى توفير جزاء كل منهما حتما (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أى محنوهم فى دينهم ليرجعوا ١٠ عنه والمراد بهم إما أصحاب الأخدود خاصة وبالمفتونين المطرحون فى الأخدود وأما الذين بلوهم فى ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق وهم داخلون فى جملتهم دخولا أولياً (ثم لم يتوبوا) أى عن كفرهم * وفتنتهم فإن ماذكر من الفتنة فى الدين لايتصور من غير الكافر قطعاً وقوله تعالى (فلهم عذاب جهنم) * جملة وقعت خبراً لأن أو الخبر لهم وعذاب مرتفع به على الفاعلية وهو الأحسن والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ولا ضير فى نسخه بأن وإن خالف الأخفش والمعنى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم (ولهم عذاب الحريق) وهى نار أخرى عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين (إن الذين آمنوا وعملوا ١١

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ٨٥ البروج

إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ٨٥ البروج

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ٨٥ البروج

ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ٨٥ البروج

فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ٨٥ البروج

---

* الصالحات) على الإطلاق من المفتونين وغيرهم (لهم) بسبب ماذكر من الإيمان والعمل الصالح (جنات تجرى من تحتها الأنهار) إن أريد بالجنات الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحية باعتبار جزئها الظاهر فإن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وقد
* مر بيانه مراراً (ذلك) إشارة إما إلى الجنات الموصوفة والتذكير لتأويلها بما ذكر للإشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذى يتنافس فيها المتنافسون فإن اسم الإشارة متعرض لذات المشار إليه من حيث اتصافه بأوصافه المذكورة لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير فإذا أشير إلى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتما وأما إلى مايفيده قوله تعالى لهم جنات الخ من حيازتهم لها فإن حصولها لهم مستلزم لحيازتهم لها قطعاً وأياً ما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره مابعده أى ذلك المذكور العظيم الشأن
* (الفوز الكبير) الذى تصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها والفوز النجاة من الشر
١٢ والظفر بالخير فعلى الأول هو مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى مصدر على حاله (إن بطش ربك لشديد) استئناف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والبطش الأخذ بعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه بالجبابرة والظلمة وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام كقوله تعالى وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد
١٣ (إنه هو يبدىء ويعيد) أى هو يبدىء الخلق وهو يعيده من غير دخل لأحد فى شيء منهما ففيه مزيد
١٤ تقرير لشدته بطشه أو هو يبدىء البطش بالكفرة فى الدنيا ويعيده فى الآخرة (وهو الغفور) لمن
١٥ تاب وآمن (الودود) المحب لمن أطاع (ذو العرش) خالقه وقيل المراد بالعرش الملك أى ذو السلطنة
* القاهرة وقرىء ذى العرش على أنه صفة ربك (المجيد) العظيم فى ذاته وصفاته فإنه واجب الوجود
١٦ تام القدرة كامل الحكمة وقرىء بالجر على أنه صفة لربك أو للعرش ومجده علوه وعظمته (فعال لما يريد) بحيث لايتخلف عن إرادته مراد من أفعاله تعالى وأفعال غيره وهو خبر مبتدأ محذوف

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ٨٥ البروج

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ٨٥ البروج

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ٨٥ البروج

وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ٨٥ البروج

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ٨٥ البروج

فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ٨٥ البروج

---

١٧ وقوله تعالى (هل أتاك حديث الجنود) استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى بالظلمة العصاة والكفرة والعتاة وكونه فعالا لما يريد متضمن لتسليته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيصيب قومه ما أصاب الجنود

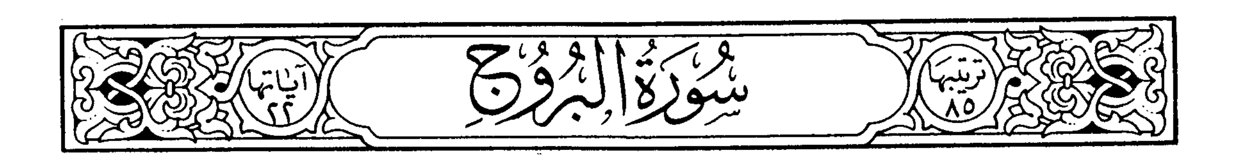
١٨ (فرعون وثمود) بدل من الجنود لأن المراد بفرعون هو وقومه والمراد بحديثهم ماصدر عنهم من التمادى فى الكفر والضلال وماحل بهم من العذاب والنكال والمعنى قد أتاك حديثهم وعرفت مافعلوا وما فعل بهم فذكر قومك بشئون الله تعالى وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم

١٩ وقوله تعالى (بل الذين كفروا فى تكذيب) إضراب عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم فى الكفر والطغيان كأنه قيل ليسوا مثلهم فى ذلك بل هم أشد منهم فى استحقاق العذاب واستيجاب العقاب فإنهم مستقرون فى تكذيب شديد للقرآن الكريم أو قيل ليست جنايتهم بجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك فى تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك لكن لا أنهم يكذبون بوقوع الحادثة بل بكون مانطق به قرآناً من عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة

٢٠ (والله من ورائهم محيط) تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط

٢١ وقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد) ردلكفرهم وإبطال لتكذيبهم وتحقيق للحق أى ليس الأمر كما قالوا بل هو كتاب شريف عالى الطبقة فيما بين الكتب الإلهية فى النظم والمعنى وقرىء قرآن مجيد بالإضافة أى قرآن رب مجيد

٢٢ (فى لوح محفوظ) أى من التحريف ووصول الشياطين إليه وقرىء محفوظ بالرفع على أنه صفة قرآن وقرىء فى لوح وهو الهواء أى مافوق السماء السابعة الذى فيه اللوح. عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كل جمعة وعرفة تكون فى الدنيا عشر حسنات.



لا خلاف في مكيتها ولا في كونها اثنتين وعشرين آية، ووجه مناسبتها لما قبلها باشتمالها كالتي قبل على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين مع التنويه بشأن القرآن وفخامة قدره. وفي البحر أنه سبحانه لما ذكر أنه جل وعلا أعلم بما يجمعون لرسول الله ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس وإحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه، ذكر سبحانه أن هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم فكانوا يعذبون بالنار وأن المعذبين كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم وأن الذين عذبوهم ملعونون فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذبونه من المؤمنين انتهى وهو وجه وجيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ﴾ أي القصور كما قال ابن عباس وغيره، والمراد بها عند جمع البروج الاثنا عشر المعروفة وأصل البرج الأمر الظاهر ثم صار حقيقة للقصر العالي لأنه ظاهر للناظرين، ويقال لما ارتفع من سور المدينة برج أيضاً وبروج السماء بالمعنى المعروف وإن التحقت بالحقيقة فهي في الأصل استعارة فإنها شبهت بالقصور لعلوها ولأن النجوم نازلة فيها كسكانها فهناك استعارة مصرحة تتبعها مكنية، وقيل: شبهت السماء بسور المدينة فأثبت لها البروج وقيل: هي منازل القمر وهذا راجع إلى القول الأول لأن البروج منقسمة إلى ثمانية وعشرين منزلاً وقد تقدم الكلام فيها. وقال مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة: هي النجوم. وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه فيه حديثاً مرفوعاً بلفظ الكواكب بدل النجوم والله تعالى أعلم بصحته. وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد عن أبي صالح أنه قال: هي

النجوم العظام وعليه إنما سميت بروجاً لظهورها وكذا على ما قبله وإن اختلفت الظهور ولم يظهر شموله جميع النجوم، وقيل: هي أبواب السماء وسميت بذلك لأن النوازل تخرج من الملائكة عليهم السلام منها فجعلت مشبهة بقصور العظماء النازلة أو أمرهم منها أو لأنها لكونها مبدأ للظهور وصفت به مجازاً في الطرف، وقيل في النسبة والبروج الاثنا عشر في الحقيقة على ما ذكره محققو أهل الهيئة معتبرة في الفلك الأعلى المسمى بفلك الأفلاك والفلك الأطلس، وزعموا أنه العرش بلسان الشرع لكنها لما لم تكن ظاهرة حساً دلوا عليها بما سامَتها وقت تقسيم الفلك الأعلى من الصور المعروفة كالحمل والثور وغيرهما التي هي في الفلك الثامن المسمى عندهم بفلك الثوابت وبالكرسي في لسان الشرع على ما زعموا فبرج الحمل مثلاً ليس إلا جزءاً من اثني عشر جزءاً من الفلك الأعلى سامته صورة الحمل من الثوابت وقت التقسيم، وبرج الثور ليس إلاّ جزءاً من ذلك سامته صورة الثور منها ذلك الوقت أيضاً وهكذا وإنما قيل وقت التقسيم لأن كل صورة قد خرجت لحركتها وإن كانت بطيئة عما كانت مسامتة له من تلك البروج حتى كاد يسامت الحمل اليوم برج الثور والثور برج الجوزاء وهكذا، فعلى هذا وكون المراد بالبروج البروج الاثني عشر أو المنازل قيل المراد بالسماء الفلك الأعلى وقيل الفلك الثامن لظهور الصور الدالة على البروج فيه، ولذا يسمى فلك البروج وقيل: السماء الدنيا لأنها ترى فيها بظاهر الحس نظير ما قيل في قوله تعالى ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ [الملك: ٥] وقيل الجنس الشامل لكل سماء لأن السماوات شفافة فيشارك العليا فيما فيها السفلى لأنه يرى فيها ظاهراً، وإذا أريد بالبروج النجوم فقيل المراد بالسماء الفلك الثامن لأنها فيه حقيقة وقيل: السماء الدنيا وقيل الجنس على نحو ما مر ولا يراد على ما قيل الفلك الأطلس أعني الفلك الأعلى لأنه كاسمه غير مكوكب وإذا أريد بها الأبواب فقيل المراد بالسماء ما عدا فلك الأفلاك المسمى بلسان الشرع بالعرش فإنه لم يرد أن له أبواباً، هذا وأنت تعلم أن أكثر ما ذكر مبني على كلام أهل الهيئة المتقدمين وهو لا يصح له مستند شرعاً ولا يكاد تسمع فيه إطلاق السماء على العرش أو الكرسي لكن لما سمع بعض الإسلاميين من الفلاسفة أفلاكاً تسعة وأراد تطبيق ذلك على ما روي في الشرع زعم أن سبعة منها هي السماوات السبع والاثنين الباقيين هما الكرسي والعرش ولم يدر أن في الأخبار ما يأبى ذلك وكون الدليل العقلي يقتضيه محل بحث كما لا يخفى. ومن رجع إلى كلام أهل الهيئة المحدثين ونظر في أدلتهم على ما قالوه في أمر الأجرام العلوية وكيفية ترتيبها قوي عنده وهن ما ذهب إليه المتقدمون في ذلك فالذي ينبغي أن يقال: البروج هي المنازل للكواكب مطلقاً التي يشاهدها الخواص والعوام وما علينا في أي سماء كانت أو الكواكب أنفسها أينما كانت أو أبواب السماء الواردة في لسان الشرع والأحاديث الصحيحة وهي لكل سماء ولم يثبت للعرش ولا للكرسي منها شيء ويراد بالسماء جنسها أو السماء الدنيا في غير القول الأخير على ما سمعت فيما تقدم فلا تغفل.

﴿والْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي الموعود به وهو يوم القيامة باتفاق المفسرين، وقيل: لعله اليوم الذي يخرج الناس فيه من قبورهم فقد قال سبحانه ﴿يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤] أو ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقيل يمكن أن يراد به يوم شفاعة النبي ﷺ على ما أشار إليه قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء: ٧٩] ولا يخفى أن جميع ذلك داخل في يوم القيامة ﴿وشاهِدٍ ومَشْهُودٍ﴾ أي ومن يشهد بذلك اليوم ويحضره من الخلائق المبعوثين فيه وما يحضر فيه من الأهوال

والعجائب فيكون الله عز وجل قد أقسم سبحانه بيوم القيامة وما فيه تعظيماً لذلك اليوم وإرهاباً لمنكريه، وتنكير الوصفين للتعظيم أي وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما أو للتكثير كما قيل في ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ [التكوير: ١٤] وأخرج الترمذي وجماعة عن أبي هريرة مرفوعاً: «الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة» وروي ذلك عن أبي مالك الأشعري وجبير بن مطعم رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً أيضاً وأخرجه جماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه وغيره من الصحابة والتابعين. وأخرج الحاكم وصححه عنه مرفوعاً أيضاً: «الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة والمشهود يوم القيامة» وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علي كرم الله تعالى وجهه: «الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النجم». وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما وكرم وجههما أن رجلاً سأله عن ذلك فقال: هل سألت أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا يوم الذبح ويوم الجمعة، قال: لا ولكن الشاهد محمد. وفي رواية جدي رسول الله ﷺ ثم قرأ ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ [النساء: ٤١] والمشهود يوم القيامة. ثم قرأ ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ [هود: ١٠٣] وروى النسائي وجماعة من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نحوه. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه والشاهد الله عز وجل والمشهود يوم القيامة. وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار الشاهد آدم عليه السلام وذريته والمشهود يوم القيامة. وعن ابن المسيب الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة. وعن الترمذي الشاهد الحفظة والمشهود أي عليه الناس. وعن عبد العزيز بن يحيى هما رسول الله ﷺ وأمته عليه الصلاة والسلام، وعنه أيضاً هما الأنبياء عليهم السلام وأممهم. وعن ابن جبير ومقاتل هما الجوارح وأصحابها وقيل هما يوم الاثنين ويوم الجمعة، وقيل هما الملائكة المتعاقبون عليهم السلام وقرآن الفجر، وقيل هما النجم والليل والنهار وقيل الشاهد الله تعالى والملائكة وأولو العلم المشهود به الوحدانية وإن الدين عند الله تعالى الإسلام وقيل الشاهد مخلوقاته تعالى والمشهود به الوحدانية وقيل هما الحجر الأسود والحجيج، وقيل الليالي والأيام وبنو آدم فعن الحسن ما من يوم إلاّ ينادي إني يوم جديد وإني على ما يعمل فيّ شهيد فاغتنمني فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة. وقيل: أمة النبي ﷺ وسائر الأمم. وجوز أن يراد بهما المقربون والعليون لقوله تعالى ﴿كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾ [المطففين: ٢٠، ٢١] وأن يراد بالشاهد الطفل الذي قال: يا أماه اصبري فإنك على الحق كما سيجيء إن شاء الله تعالى. والمشهود له أمه والمؤمنون لأنه إذا كانت أمه على الحق فسائر المؤمنين كذلك. وقيل: وجميع الأقوال في ذلك على ما وقفت عليه نحو من ثلاثين قولاً والوصف على بعضها من الشهادة بمعنى الحضور ضد المغيب، وعلى بعضها الآخر من الشهادة على الخصوم أوله شهادة الجوارح بأن ينطقها الله تعالى الذي أنطق كل شيء وكذا الحجر الأسود ولا بعد في حضوره يوم القيامة للشهادة للحجيج، وأما شهادة اليوم فيمكن أن تكون بعد ظهوره في صورة كظهور القرآن على صورة الرجل الشاحب إذ يتلقى صاحبه عند قيامه من قبره وظهور الموت في صورة كبش يوم القيامة حتى يذبح بين الجنة والنار إلى غير ذلك. وقال الشهاب: الله تعالى قادر على أن يحضر اليوم ليشهد ولم يبيّن كيفية ذلك فإن كانت كما ذكرنا فذاك وإن كانت شيئاً آخر بأن يحضر نفس اليوم في ذلك اليوم فالظاهر أنه يلزم أن يكون للزمان زمان وهو إن جوزه من جوزه من المتكلمين لكن في الشهادة بلسان القال عليه خفاء ومثلها نداء اليوم الذي سمعته آنفاً عن الحسن إن كان بلسان القال أيضاً دون لسان الحال كما هو الأرجح عندي. واختار أبو حيان من الأقوال على تقدير أن يراد بالشهادة الشهادة بالمعنى الثاني القول بأن الشاهد من يشهد في ذلك اليوم أعني اليوم الموعود يوم القيامة وأن المشهود من يشهد عليه

فيه، وعلى تقدير أن يراد بها الشهادة بالمعنى الأول القول بأن الشاهد الخلائق الحاضرون للحساب وأن المشهود اليوم ولعل تكرير القسم به وإن اختلف العنوان لزيادة تعظيمه فتأمل. وجواب القسم قيل هو قوله تعالى ﴿إن الذين فتنوا﴾ [البروج: ١٠] وقال المبرد هو قوله تعالى ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ [البروج: ١٢٠] وصرح به ابن جريج وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود ما يدل عليه وقال غير واحد هو قوله تعالى ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾ على حذف اللام منه للطول والأصل لقتل كما في قوله:

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولا صالي

وقيل: على خدف اللام وقد والأصل لقد قتل وهو مبني على ما اشتهر من أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاقتصار على أحدهما إلاّ عند طول الكلام كما في قوله سبحانه ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس: ٩] بعد قوله تعالى ﴿والشمس وضحاها﴾ [الشمس: ١] الخ والبيت المذكور ولا يجوز تقدير اللام بدون قد لأنها لا تدخل على الماضي المجرد منها، وتمام الكلام في محله كشروح التسهيل وغيرها وأيّاً ما كان فالجملة خبرية. وقال بعض المحققين: إن الأظهر أنها دعائية دالة على الجواب كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش لملعونون أحقاء بأن يقال فيها قتلوا كما هو شأن أصحاب الأخدود لما أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان وتصبيرهم على أذية الكفرة وتذكيرهم بما جرى ممن تقدمهم من التعذيب لأهل الإيمان وصبرهم على ذلك حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أنهم مثل أولئك عند الله عز وجل في كونهم ملعونين مطرودين، فالقتل هنا عبارة عن أشد اللعن والطرد لاستحالة الدعاء منه سبحانه حقيقة فأريد لازمه من السخط والطرد عن رحمته جل وعلا. وقال بعضهم: الأظهر أن يقدر أنهم لمقتولون كما قتال أصحاب الأخدود فيكون وعداً له ﷺ بقتل الكفرة المتردين لإعلاء دينه، ويكون معجزة بقتل رؤوسهم في غزوة بدر انتهى. وظاهرة إبقاء القتل على حقيقته واعتبار الجملة خبرية وهو كما ترى وحكي في البحر أن الجواب محذوف وتقديره لتبعثن ونحوه وليس بشيء كما لا يخفى و ﴿**الأخدود**﴾ الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الخق والأخقوق ومنه ما جاء في خبر سراقة حين تبع رسول الله ﷺ فساخت قوائمه أي قوائم فرسه في أخاقيق جرذان.

أخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث صهيب يرفعه: «كان ملك من الملوك وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً فأعلمه علمي هذا فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه، فنظروا له غلاماً على ما وصف فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يُختلف إليه، فجعل الغلام يُختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعة فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره فقال: إنما أعبد الله تعالى. فجعل الغلام يمكث عند الراهب ويبطىء على الكاهن فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام إنه لا يكاد يحضرني فأخبر الغلام الراهب بذلك فقال له الراهب: إذا قال لك الكاهن أين كنت فقل عند أهلي، وإذا قال لك أهلك أين كنت فأخبرهم أنك كنت عند الكاهن، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثيرة قد حبستهم دابة يقال كانت أسداً، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان ما يقول الراهب حقاً فأسألك أن أقتل هذه الدابة وإن كان ما يقوله الكاهن حقاً فأسألك أن لا أقتلها ثم رمى فقتل الدابة، فقال الناس من قتلها؟ فقالوا: الغلام ففزع الناس وقالوا قد علم هذا

الغلام علماً لم يعلمه أحد، فسمع أعمى فجاءه فقال له: إن أنت رددت بصري فلك كذا وكذا، فقال الغلام: لا أريد منك هذا ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك؟ قال نعم، فرد عليه بصره فآمن الأعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال؛ لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردّون حتى لم يبق منهم إلاّ الغلام، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه فانطلق به إلى البحر ففرق الله تعالى الذين كانوا معه وأنجاه الله تعالى، فقال الغلام للملك: إنك لا تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام فوضع الغلام يده على صدغه حين رمي ثم مات. فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد فإنا نؤمن برب هذا الغلام فقيل للملك: أجزعت إن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك فخدَّ أخدوداً ثم ألقى فيها الحطب والنار ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود، فقال: يقول الله تعالى ﴿**قتل أصحاب الأخدود** ـ حتى بلغ ـ **العزيز الحميد**﴾، وفيه فأما الغلام فإنه دفن ثم أخرج فيذكر أنه خرج في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل وفي بعض رواياته فجاءت امرأة بابن لها صغير فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن نجيّ قال: شهدت علياً كرم الله تعالى وجهه وقد أتاه أسقف نجران فسأله عن أصحاب الأخدود فقص عليه القصة، فقال عليّ كرم الله تعالى وجهه: أنا أعلم بهم منك بعث نبي من الحبش إلى قومه ثم قرأ رضي الله تعالى عنه ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ [غافر: ٧٨] فدعاهم فتابعه الناس فقاتلهم فقتل أصحابه وأخذ فأوثق فانفلت فأنس إليه رجال فقاتلهم وقتلوا، وأخذ فأوثق فخددوا أخدوداً وجعلوا فيها النيران وجعلوا يعرضون الناس فمن تبع النبي رُمِي به فيها ومن تابعهم ترك. وجاءت امرأة في آخر من جاء ومعها صبي فجزعت فقال الصبي: يا أمه اصبري ولا تماري، فوقعت. وأخرج عبد بن حميد عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال: كان المجوس أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمرة قد أحلت لهم فتناول منها ملك من ملوكهم فغلبته على عقله فتناول أخته أو ابنته فوقع عليها، فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها: ويحك ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه؟ قالت: المخرج منه أن تخطب الناس فتقول: أيها الناس إن الله تعالى أحل نكاح الأخوات أو البنات، فقال الناس جماعتهم معاذ الله تعالى أن نؤمن بهذا أو نقر به أو جاء به نبي أو نزل علينا في كتاب، فرجع إلى صاحبته وقال: ويحك إن الناس قد أبوا عليّ ذلك، قالت: إن أبوا عليك فابسط فيهم السوط فبسط فيهم السوط فأبوا أن يقروا، قالت: فجرد فيهم السيف فأبوا أن يقروا، قالت: فخدّ لهم الأخدود ثم أوقد فيها النيران فمن تابعك خل عنه فأخدَّ لهم أخدوداً وأوقد فيها النيران وعرض أهل مملكته على ذلك فمن أبى قذفه في النار ومن لم يأب خلى عنه. وقيل: وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير فخيّرهم بين النار واليهودية فأبوا فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد وقيل سبعين ألفاً، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثني عشر ذراعاً، ولاختلاف الأخبار في القصة اختلفوا

في موضع الأخدود فقيل بنجران لهذا الخبر الأخير، وقيل بأرض الحبشة لخبر ابن نجيّ السابق. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه كان بمذراع اليمن أي قراه وهذا لا ينافي كونه بنجران لأنه بلد باليمن، وكذا اختلفوا في أصحاب الأخدود لذلك فحكي فيه ما يزيد على عشرة أقوال منها أنهم حبشة، ومنها أنهم من النبط وروي عن عكرمة، ومنها أنهم من بني إسرائيل وروي عن ابن عباس، وأصح الروايات عندي في القصة ما قدمناه عن صهيب رضي الله تعالى عنه والجمع ممكن، فقد قال عصام الدين: لعل جميع ما روي واقع والقرآن شامل له فلا تغفل. وقرأ الحسن وابن مقسم «قُتِّل» بالتشديد وهو مبالغة في لعنهم لعظم ما أتوا به وقد كان ﷺ على ما أخرج ابن أبي شيبة عن عوف وعبد بن حميد عن الحسن إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ من جهد البلاء.

﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود والرابط مقدر أي فيه أو أقيم إلى مقام الضمير، أو لأنه معلوم اتصاله به فلا يحتاج لرابط وكذا كل ما يظهر ارتباطه فيما قبل. وجوز أبو حيان كونه بدل كل من كل على تقدير محذوف أي أخدود النار وليس بذاك. وقرأ قوم «النَّارُ» بالرفع فقيل على معنى قتلتهم النار كما في قوله تعالى ﴿يسبّح له فيها بالغدو والآصال رجال﴾ [النور: ٣٦] على قراءة «يُسَبَّحُ» بالبناء للمفعول وقوله:

ليبك يزيد ضارع لخصومة

ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين وليس المراد بالقتل اللعن، وجوز أن يراد بهم الكفرة والقتل على حقيقته بناء على ما قال الربيع بن أنس والكلبي وأبو العالية وأبو إسحاق من أن الله تعالى بعث على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذي كانوا على حافتي الأخدود، وأنت تعلم أن قول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دلت عليه القصص التي ذكروها فلا ينبغي أن يعول عليه، وإن حمل القتل على حقيقته غير ملائم للمقام ولعل الأولى في توجيه هذه القراءة أن ﴿النار﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي أو هو النار ويكون الضمير راجعاً على الأخدود وكونه النار خارج مخرج المبالغة كأنه نفس النار ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ وصف لها بعناية العظمة وارتفاع اللهب وكثرة ما يوجبه ووجه إفادته ذلك أنه لم يقل موقدة بل جعلت ذات وقود أي مالكته وهو كناية عن زيادته زيادة مفرطة لكثرة ما يرتفع به لهبها وهو الحطب الموقد به لأن تعريفه استغراقي وهي إذا ملكت كل موقود به عظم حريقها ولهبها وليس ذلك لأنه لا يقال ذو كذا إلاّ لمن كثر عنده كذا لأنه غير مسلم، وذو النون يأباه وكذا ذو العرش. وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى «الوُقُودِ» بضم الواو وهو مصدر بخلاف مفتوحه فإنه ما يوقد به. وقد حكى سيبويه أنه مصدر كمضمونه. وقوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ ظرف لقتل أي لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها في مكان قريب منها مشرفين عليها من حافات الأخدود كما في قول الأعشى:

تشب لمقرورَين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق

وقيل الكلام بتقدير مضاف أي على حافاتها أو نحوه، والجمهور على أن المراد ذلك من غير تقدير ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً لم يقصر فيما أمر به، أو يشهدون عنده على حسن ما يفعلون واشتماله على الصلاح ما قيل أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل الشنيع يوم القيامة، أو يشهدون على أنفسهم بذلك يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم. وقيل ﴿على﴾ بمعنى مع والمعنى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور لا يرقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم، ومن زعم

أن الله تعالى نجّى المؤمنين وإنما أحرق سبحانه الكافرين يقول هنا المراد وهم على ما يريدون فعله بالمؤمنين شهود، وأيّاً ما كان ففي المؤمنين تغليب والمراد ﴿بالمؤمنين﴾ والمؤمنات ومن الغريب الذي لا يلتفت إليه ما قيل إن أصحاب الأخدود عمرو بن هند المشهور بمحرق ومن معه حرق مائة من بني تميم وضمير ﴿هم على ما يفعلون﴾ لكفار قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات ﴿وما نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي ما أنكروا منهم وما عابوا. وفي مفردات الراغب يقال: نقمت الشيء إذا أنكرته بلسانك أو بعقوبة. وقرأ زيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة «وما نَقِمُوا» بكسر القاف والجملة عطف على الجملة الاسمية وحسن ذلك على ما قيل كون تلك الاسمية لوقوعها في حيز إذ ماضوية فكان العطف عطف فعلية على فعلية. وقيل إن هذه الفعلية بتقدير وهم ما نقموا منهم ﴿إلاّ أنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ استثناء مفصح عن براءتهم عما يعاب وينكر بالكلية على منهاج قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

وكون الكفرة يرون الإِيمان أمراً منكراً والشاعر لا يرى الفلول كذلك لا يضر على ما أرى في كون ذلك منه عز وجل جارياً على ذلك المنهاج من تأكيد المدح بما يشبه الذم، ثم إن القوم إن كانوا مشركين فالمنكر عندهم ليس هو الإِيمان بالله تعالى بل نفي ما سواه من معبوداتهم الباطلة وإن كانوا معطِّلة فالمنكر عندهم ليس إلاّ إثبات معبود غير معهود لهم لكن لما كان مآل الأمرين إنكار المعبود بحق الموصوف بصفات الجلال والإكرام عبر بما ذكر مفصحاً عما سمعت فتأمل. ولبعض الأعلام كلام في هذا المقام قد رده الشهاب فإن أردته فارجع إليه. وفي المنتخب إنما قال سبحانه ﴿إلا أن يؤمنوا﴾ لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإِيمان في المستقبل ولو كفروا فيه لم يعذبوا على ما مضى فكأنه قال عز وجل: إلاّ أن يدوموا على إيمانهم انتهى. وكأنه حمل النقم على الإِنكار بالعقوبة، ووصفه عز وجل بكونه عزيزاً غلباً يخشى عقابه وحميداً منعماً يرجى ثوابه، وتأكيد ذلك بقوله سبحانه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ﴾ للإِشعار بمناط إيمانهم. وقوله تعالى ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعد لهم ووعيد لمعذبيهم فإن علم الله جل شأنه الجامع لصفات الجلال والجمال بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما ولكونه تذييلاً لذلك واللائق به الاستقلال جيء فيه بالاسم الجليل دون الضمير ﴿إنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المؤمنين والمُؤْمِنَاتِ﴾ أي محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه والمراد بالذين فتنوا وبالمؤمنين والمؤمنات المفتونين، أما أصحاب الأخدود والمطروحون فيه خاصة وأما الأعم، ويدخل المذكورون دخولاً أولياً وهو الأظهر. وقيل: المراد بالموصول كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات من هذه الأمة بأنواع من العذاب وقوله تعالى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبوا﴾ قال ابن عطية: يقوي أن الآية في قريش لأن هذا اللفظ فيهم أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزولها من تاب وآمن، وأنت تعلم أن هذا على ما فيه لا يعكر على أظهرية العموم والظاهر أن المراد ثم لم يتوبوا من فتنهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جُهَنَّمَ﴾ أي بسبب فتنهم ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ﴾ وهو نار أخرى زائدة الإِحراق كما تنبىء عنه صيغة فعيل لعدم توبتهم ومبالاتهم بما صدر منهم. وقال بعض الأجلة: أي ﴿فلهم عذاب جهنم﴾ بسبب كفرهم فإن فعلهم ذلك لا يتصور من غير الكافر ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ بسبب فتنهم المؤمنين والمؤمنات وفي جعل ذلك جزاء الفتن من الحسن ما لا يخفى. وتعقب بأن عنوان الكفر لم يصرح به في جانب الصلة وإنما المصرح به الفتن وعدم التوبة فالأظهر اعتبارهما

سببين في جانب الخبر على الترتيب، وقيل: أي فلهم جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا بناء على ما روي عن الربيع ومن سمعت أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم وقد علمت حاله وتعقبه أبو حيان بأن ﴿ثم لم يتوبوا﴾ يأبى عنه لأن أولئك المحرقين لم ينقل لنا أن أحداً منهم تاب بل الظاهر أنهم لم يلعنوا إلاّ وهم قد ماتوا على الكفر وفيه نظر، وعليه إنما أخر ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ ورعاية للفواصل أو للتتميم والترديف كأنه قيل ذلك وهو العقوبة العظمى كائن لا محالة وهذا أيضاً لا يتجاوزونه. وفي الكشف الوجه أن عذاب جهنم وعذاب الحريق واحد وصف بما يدل على أنه للمعبودين جداً عن رحمته عز وجل، وعلى أنه عذاب هو محض الحريق وهو الحرق البالغ وكفى به عذاباً. والظاهر أنه اعتبر الحريق مصدراً والإضافة بيانية ولا بأس بذلك إلاّ أن الوحدة التي ادعاها خلاف ظاهر العطف. وقال بعضهم: لو جعل من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه لأن عذاب جهنم بالزمهرير والإحراق وغيرهما كان أقرب، ولعل ما ذكرناه أبعد عن القال والقيل. وجملة ﴿فلهم عذاب﴾ الخ وقعت خبراً لأن أو الخبر الجار والمجرور وعذاب مرتفع به على الفاعلية وهو الأحسن والفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط ولا يضر نسخه بأن وإن زعمه الأخفش. واستدل بالآية على بعض أوجهها على أن عذاب الكفار يضاعف بما قارنه من المعاصي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿إن الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ﴾ إن أريد بالجنات الأشجار فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر فإن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عنه اسم الجنة وفصل الجملة، قيل لأنها كالتأكيد لما أشعرت به الآية قبل من اختصاص العذاب بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كون ما ذكر لهم وحيازتهم إياه وقيل للجنات الموصوفة والتذكير لتأويلها بما ذكر وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو الدرجة وبعد المنزلة في الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من الرغائب والفوز النجاة من الشر والظفر بالخير فعلى الوجه الثاني في الإشارة هو مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الأول مصدر على حاله ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ استئناف خوطب به النبي ﷺ إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام والبطش الأخذ بصولة وعنف وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم وهو بطشه عز وجل بالجبابرة والظلمة، وأخذه سبحانه إياهم بالعذاب والانتقام ﴿إنهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ﴾ أي إنه عز وجل هو يبدأ الخلق بالإنشاء وهو سبحانه يعيده بالحشر يوم القيامة كما قال ابن زيد والضحاك، أو يبدىء كل ما يبدي ويعيد كل ما يعاد كما قال ابن عباس من غير دخل لأحد في شيء منهما، ومن كان كذلك كان بطشه في غاية الشدة. أو يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا ثم يعيده في الآخرة وعلى الوجهين الجملة في موضع التعليل لما سبق

ووجهه على الثاني ظاهر وعلى الأول قد أشرنا إليه، وقيل: وجهه عليه أن الإعادة للمجازاة فهي متضمنة للبطش وليس بذاك. وعن ابن عباس يبدىء العذاب بالكفار ويعيده عليهم فتأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم عز وجل خلقاً جديداً وفيه خفاء وإن كان أمر الجملة عليه في غاية الظهور. واستعمال يبدىء مع يعيد حسن وإن لم يسمع أبداً كما بين في محله. وحكى أبو زيد أنه قرىء «يَبْدَأُ» من بدأ ثلاثياً وهو المسموع لكن القراءة بذلك شاذة ﴿وَهُوَ الغَفُورُ﴾ لمن يشاء من المؤمنين وقيل لمن تاب وآمن والتخصيص عند من يرى رأي أهل السنة إما لمناسبة مقام الإنذار أو لما في صيغة الغفور من المبالغة فأصل المغفرة لا يتوقف على التوبة وزيادتها بها لا يعلمه إلاّ الله تعالى للتائبين ﴿الوَدُودُ﴾ المحب كثيراً لمن أطاع ففعول صيغة مبالغة في الواد اسم فاعل ومحبة الله تعالى ومودته عند الخلف بإنعامه سبحانه وإكرامه جل شأنه، ومن هنا فسر الودود بكثير الإحسان، وعن ابن عباس أي المتودد إلى عباده تعالى شأنه بالمغفرة. وقيل: هو فعول بمعنى مفعول كركوب وحلوب أي يوده ويحبه سبحانه عباده الصالحون وهو خلاف الظاهر. وحكى المبرد عن القاضي إسماعيل بن إسحاق أن الودود هو الذي لا ولد له، وأنشد قوله:

وأركب في الروع عريانة ... ذلول الجماح لقاحاً ودودا

أي لا ولد لها تحن إليه وحمله مع الغفور على هذا المعنى غير مناسب كما لا يخفى ﴿ذُو العَرْشِ﴾ أي صاحبه والمراد مالكه أو خالقه وهو أعظم المخلوقات. وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه: لو جمعت مياه الدنيا ومسح بها سطح العرش الذي يلينا لما استوعب منه إلاّ قليل. وجاء في الأخبار من عظمه ما يبهر العقول. وقال القفال ﴿ذو العرش﴾ ذو الملك والسلطان كأنه جعل العرش بمعنى الملك بطريق الكناية والتجوز، وجوز أن يبقى العرش على حقيقته ويراد بذي العرش الملك لأن ذا العرش لا يكون إلا ملكاً. وقرأ ابن عامر في رواية «ذي العرش» بالياء على أنه صفة لـ ﴿ربك﴾ وحينئذ يكون قوله تعالى ﴿إنه هو﴾ الخ جملة معترضة لا يضر الفصل بها بين الصفة والموصوف، وكذا لا يضر الفصل بينهما بخبر المبتدأ لأنه ليس بأجنبي فإن الموصوف هنا من تتمة المبتدأ. وقد قال ابن مالك في التسهيل: يجوز الفصل بين التابع والمتبوع بما لا يتمحض مباينته. نعم قال ابن الحاجب الفصل بين الصفة والموصوف بخبر المبتدأ شاذ كما في قوله:

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

﴿الـمَجِيدُ﴾ العظيم في ذاته عز وجل وصفاته سبحانه فإنه تعالى شأنه واجب الوجوب تام القدرة كامل الحكمة. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان «المجيد» بالجر صفة للعرش ومجده علوه وعظمته وحسن صورته وتركيبه، فإنه قيل العرش أحسن الأجسام صورة وتركيباً وليس من مجده كون الحوادث الكونية بتوسط أوضاعه كما يزعمه المنجمون فإن ذلك باطل شرعاً وعقلاً على ما تقتضيه أصولهم. وجاز على قراءة «ذي العرش» بالياء أن يكون صفة لـ ﴿ذي﴾ وجوز كونه صفة لـ ﴿ربك﴾ وليس بذلك لأن الأصل عدم الفصل بين التابع والمتبوع فلا يقال به ما لم يتعين ﴿فعَّالٌ﴾ لِمَا يُرِيدُ بحيث لا يتخلف عن إرادته تعالى من أفعاله سبحانه وأفعال غيره عز وجل فما للعموم وفي التنكير من التفخيم ما لا يخفى وفيه رد ظاهر على المعتزلة في قولهم إنه سبحانه وتعالى إيمان الكافر وطاعة العاصي ويتخلفان عن إرادته سبحانه والمرفوعات كلها على ما استحسنه أبو حيان أخبار لهو في قوله تعالى ﴿هو الغفور﴾ وجوز أن يكون ﴿الودود﴾ و ﴿ذو العرش﴾ و ﴿المجيد﴾ صفات لـ ﴿غفور﴾ ومن لم يجوز تعدد الخبر لمبتدأ واحد يقول بذلك أو بتقدير مبتدءات للمذكورات. وأطلق الزمخشري القول بأن ﴿فعال﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو

فعال فقال صاحب الكشف إنما لم يحمله على أنه خبر السابق أعني هو في قوله تعالى ﴿**هو الغفور**﴾ لأن قوله سبحانه ﴿**فعال لما يريد**﴾ تحقيق للصفتين البطش بالأعداء والغفر والود للأولياء، ولو حمل عليه لفاتت هذه النكتة اهـ. وهو تدقيق لطيف.

وقوله تعالى ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ**﴾ استئناف فيه تقرير لكونه تعالى فعالاً لما يريد وكذا لشدة بطشه سبحانه بالظلمة العصاة والكفرة العتاة وتسلية له ﷺ بالإشعار بأنه سيصيب كفرة قومه ما أصاب الجنود وهو جمع جند يقال للعسكر اعتباراً بالغلظة من الجند أي الأرض الغليظة وكذا للأعوان، ويقال لصنف من الخلق على حدة وكذا لكل مجتمع والمراد بـ ﴿**الجنود**﴾ ها هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله تعالى عليهم السلام واجتمعوا على أذيتهم ﴿**فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ**﴾ بدل من ﴿**الجنود**﴾ بدل كل من كل على حذف مضاف أي جنود فرعون أو على أن يراد بفرعون هو وقومه، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه. وقيل: البدل هو المجموع لا كل من المتعاطفين وهو خلاف الظاهر. وقال السمين: يجوز كونه منصوباً بأعني لأنه لما لم يطابق ما قبله وجب قطعه، وتعقب بأنه تفسير للجنود حينئذ فيعود الإشكال. وأجيب بأن المفسر حينئذ المجموع وليس اعتباره مع أعني كاعتباره مع الإبدال والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادي في الكفر والضلال وما حل بهم من العذاب والنكال، والمعنى قد أتاك حديثهم وعرفت ما فعلوا وما فعل بهم فذكر قومك بأيام الله تعالى وشؤونه سبحانه، وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم وقوله تعالى ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي من قومك ﴿**فِي تَكْذِيبٍ**﴾ إضراب انتقالي عن مماثلتهم لهم وبيان لكونهم أشد منهم في الكفر والطغيان كما ينبىء عنه العدول عن يكذبون إلى ﴿**في تكذيب**﴾ المفيد لإحاطة التكذيب بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالغريق فيه مع ما في تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله. فكأنه قيل: ليسوا مثلهم بل هم أشد منهم فإنهم غرقى مغمورون في تكذيب عظيم للقرآن الكريم فهم أولى منهم في استحقاق العذاب، أو كأنه قيل: ليست جنايتهم مجرد عدم التذكر والاتعاظ بما سمعوا من حديثهم بل هم مع ذلك في تكذيب عظيم للقرآن الناطق بذلك وكونه قرآناً من عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة وقوله تعالى ﴿**والله مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ**﴾ جوز أن يكون اعتراضاً تذليلياً وأن يكون حالاً من الضمير في الجار والمجرور السابق، والكلام تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله تعالى بعدم فوت المحاط المحيط كما قال غير واحد، وكان المعنى أنه عز وجل عالم بهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه ولا يفوتونه سبحانه وتعالى. وذكر عصام الدين أن في ذلك تعويضاً وتوبيخاً للكفار بأنهم نبذوا الله سبحانه وراء ظهورهم وأقبلوا على الهوى والشهوات بكليتهم ولعل ذلك من العدول عن ربهم إلى من ورائهم.

وقوله تعالى ﴿**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ**﴾ رد لكفرهم وإبطال لتكذيبهم وتحقيق للحق أي بل هو كتاب شريف عالي الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى لا يحق تكذيبه والكفر به. وقيل: إضراب وانتقال عن الإخبار بشدة تكذيبهم وعدم ارعوائهم عنه إلى وصف القرآن للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء، والأول أولى. وزعم بعضهم أن الإضراب الأول عن قصة فرعون وثمود إلى جميع الكفار والمعنى عليه أن جميع الكفار في تكذيب ولم يكن نبي فارغاً عن تكذيبهم والله تعالى لا يهمل أمرهم، وفيه من تسليته ﷺ ما فيه ويبعده إرداف ذلك بهذا الإضراب. وقرأ ابن السميفع «قُرْآنُ مَجِيدٍ» بالإضافة قال ابن خالويه: سمعت ابن الأنباري يقول: معناه بل هو قرآن رب مجيد كما قال الشاعر:

ولكن للغنى رب غفور

أي غنى رب غفور وقال ابن عطية: قرأ اليماني بالإضافة على أن يكون المجيد هو الله تعالى وهو محتمل للتقدير وعدمه، وجوز أن يكون من إضافة الموصوف لصفته قال أبو حيان: وهذا أولى لتوافق القراءتين ﴿فِي لَوْحٍ﴾ أي كائن في لوح ﴿مَحْفُوظٍ﴾ أي ذلك اللوح من وصول الشياطين إليه وهذا هو اللوح المحفوظ المشهور وهو على ما روي عن ابن عباس والعهدة على الراوي لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور وهو معقود بالعرش، وأصله في حجر مالك يقال له ساطريون لله عز وجل فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وأنه كتب في صدره لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له دينه الإسلام ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله عز وجل وصدق بوعده واتبع رسله أدخله الجنة. وقال مقاتل: إن اللوح المحفوظ عن يمين العرش وجاء فيه إخبار غير ذلك ونحن نؤمن به ولا يلزمنا البحث عن ماهيته وكيفية كتابته ونحو ذلك. نعم نقول إن ما يزعمه بعض الناس من أنه جوهر مجرد ليس في حيّز وإنه كالمرآة للصور العليّة مخالف لظواهر الشريعة وليس له مستند من كتاب ولا سنة أصلاً. وقرأ ابن يعمر وابن السميفع «لُوح» بضم اللام، وأصله في اللغة الهواء والمراد به هنا مجازاً ما فوق السماء السابعة. وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه «محفوظٌ» بالرفع على أنه صفة لقرآن و ﴿فِي لوح﴾ قيل متعلق به، وقيل صفة أخرى لقرآن. وتعقب بأن فيه تقديم الصفة المركبة على المفردة وهو خلاف الأصل والمعنى عليه قيل محفوظ بعد التنزيل من التغيير والتبديل والزيادة والنقص كما قال سبحانه ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩] وقيل محفوظ في ذلك اللوح عن وصول الشياطين إليه والله تعالى أعلم.